رياض نجيب الريّس

العرب وجيرانهم

الأقليات القوميّة في الوطن العربي

رياض الريّس للكتب والنشر

العرب وجيرانهم

رياض نجيب الريس

العرب وجيرانهم

الأقليات القوميّة في الوطن العربي

ARABS AND THEIR NEIGHBOURS

by

RIAD N. EL- RAYYES

Second Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ
U.K.
CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

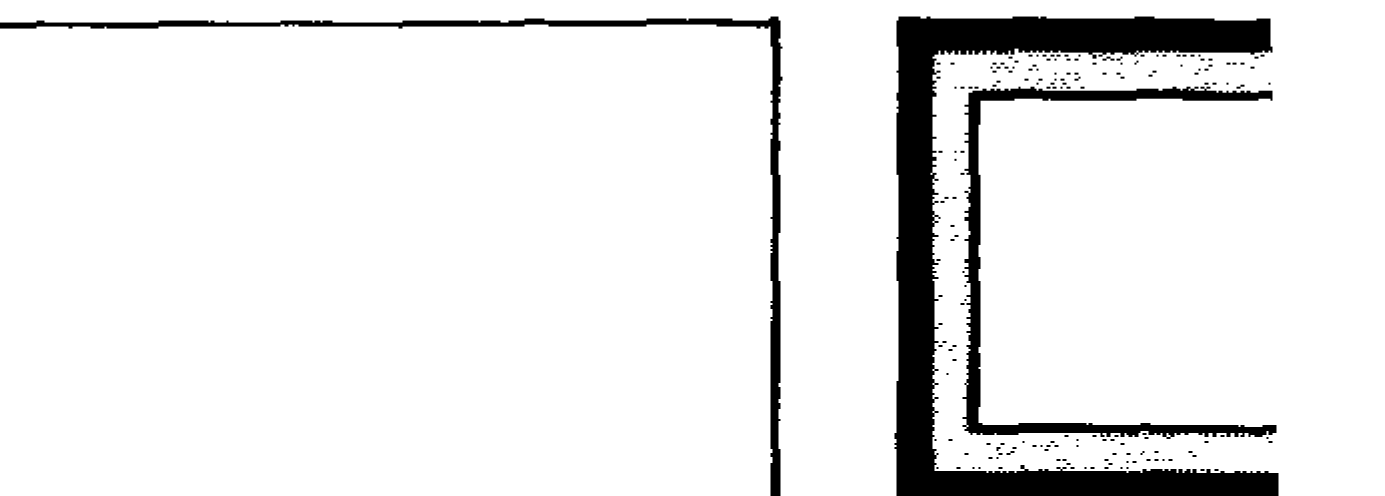
British Library Cataloguing in Publication Data

El-Rayyes, Riad
Lost causes.
1. Arab countries. Ethnic minorities
I. Title
305.8'0017'4927

ISBN 1 - 869844 - 87 - 4

الطبعة الأولى: ١٩٨٩
الطبعة الثانية: تموز / يوليو ١٩٩١

«إلى ذكرى نجيب عبد الهادي
شريكي في الرهان على كل القضايا الخاسرة»


محتويات الكتاب

مقدّمة

أين البطل

«الفشل نجاح مؤجل»

غراهام غرين

القضايا الخاسرة في العالم كثيرة. كتب التاريخ مليئة بأحداث الثورات المهزومة والمناضلين المتعبين. صفحات تاريخنا العربي المعاصر تضج بالهزائم منذ أكثر من قرن الى اليوم. أبطال هذه القضايا واراهم التراب أو طواهم النسيان. ثوارها أصبحوا في السلطة التي لم يستطيعوا مقاومتها، فهزمتهم المناصب. مناضلوها أصبحوا رجال أعمال وسماسرة، كسبوا الثروة وخسروا الثورة. كتّابها أصبحوا عازفين في أوركسترا الدولة التي حاربوها. شعراؤها باتوا مغنين في جوقة النظام الذي سخّروا القوافي لهدمه.

وتكتشف من قراءة التاريخ أن القضايا والثورات التي انتصرت، كان لها دائماً أبطال. وغالباً ما يكون هؤلاء الأبطال أصحاب فكر أو رسالة. وعادة ما يكون هؤلاء أيضاً أصحاب زند أو حاملي سيف فقط. أنبياء كانوا أو شعراء أو رواة. وكثيراً ما يكون البطل شاعراً في التاريخ العربي. فمنذ الجاهلية الى صدر الاسلام، كان البطل والشاعر واحداً.

ومن أهم أسباب خسارة القضايا وفشل الثورات غياب البطل. البطل الذي لم يتألق. أو البطل الذي لم يصمد. أو البطل الذي لم يفهم معنى البطولة ولا واجباتها ولا حدودها. كثيراً ما يسقط البطل ضحية سوء إدارته لبطولته. وكثيراً ما ينجح لأنه أوجد القاعدة التي أحسنت استخدام بطولته. ومن المؤسف أن كل القضايا التي سنستعرضها ما زال ينقصها البطل.

■ ■ ■

كان من نصيبي دائماً كصحافي أن أقف على أبواب قضايا كثيرة خاسرة، وأن أتعرّف على ثورات كثيرة فاشلة، وأن أختلط بعدد كبير من أصحاب هذه القضايا والثورات المهزومة. كم يكون مضجراً ومملاً عمل الصحافي لو اقتصر على الأنظمة والحكام فقط. ولأن أكثر هذه القضايا الخاسرة لا تجد طريقاً الى تعريف الناس بها، عملاً بالقاعدة التي لا تخطىء بأن لا شيء ينجح كالنجاح، فإن الصحافة لا تهتم عادة بالفاشلين سواء أكانوا ثورات أو قضايا أو أشخاص.

لكن هناك صرخات كثيرة يجب أن تُسمع، وأصواتاً يجب أن تَعلو، وأعلاماً يجب ان تُرفَع.

على ضوء ما يجـري اليـوم من أحداث في عالمنا العربي ونتيجة لاحتدام الصراع على الأرض العربية، بدءاً بما يحدث من حرب أهلية ـ عربية ـ دولية في لبنـان، وتمزق القضية الفلسطينية، ومروراً بالتصعيد التي شهدته الحرب العراقية ـ الايرانية وقد دخلت سنتها الثامنة، قبل ان تضع اوزارها في وقف لاطلاق النار في آب/ أغسطس ١٩٨٨، وانتهاءً بما يقع في القوس المحيط بالعالم العـربي من باكستـان شرقـاً حتى أفغـانستان وتركيا شمالاً، ومن الصحراء المغـربيـة غرباً، مروراً بحرب القرن الأفريقي، في أوغادين أو في أريتريا، الى الحرب في تشاد جنوباً، فإن عدداً من القضايا الخاسرة قد أصبحت تبدو من الأهمية والخطورة بمكان، حتى أن فشلها يكاد يصبح اليوم نجاحاً مؤجلاً.

وشعرت أن هناك مجموعة من «القضايا الخاسِرة» المحيطة بحزام القضية العربية الأساسية والتي تشكل انعكاساً مباشراً لها وعليها، يجب الخوض فيها والتحدث عنها والتصدي لها وشرحها. بَعضُها مُلح وبعضها ينتظر الظروف الدولية المواتية ليصبح أكثر الحاحاً، ولكنها جميعاً من الأهمية بحيث لا يجوز التغاضي عنها و إهمالها.

ولا يعنيني في عرضي لهذه القضايا ـ وكلها مثيرة للجدل ـ ان أُتهَم بالانحياز لها أو ضدها، بقدر ما يعنيني أن أكون منصفاً لها، وأن ألفت النظر اليها في محـاولة لفهم هذه القضـايـا تاريخياً وعلى ضوء ما يجري اليوم في المنطقة، «وتجيير» هذا الفهم للمصلحة العربية الحالية والمستقبلية.

إن حلم أصحـاب هذه القضـايا بوطن بدل القبيلة، وبدولة بدل العائلة، وبلغـة بدل لغاتها المنقرضة، وبانتماء الى العالم العربي بدل الانتماء الى لا شيء، لم يعد تحريض صحافي أو دعوة كاتب. لقد أصبحت أوراق هذه القضايا كلها تنتظر من يفاوض ومن يعطي ومن يأخذ، لا من يَقْمَع أو يتجاهل أو ينسى. المهم أن تبقى هذه الأوراق لصالح قومية العالم العربي وتماسكه واستقراره.

إن هذه القضايا ليست عوالم جديدة بدأت تطل على العرب. لقد كانت دائماً قائمـة هنـاك، لكنها أخذت اليوم تفرض نفسها بشكل أو بآخر، سلباً كان أم إيجاباً، على أحداث العالم العربي ووقائعه.

إن القضية إن وجدت النصير، فلا بد من أن تجد الطريق. لقد علّمنا الماضي أن كل قضايا الأوطان تبدأ بحلم شاعر وقلم كاتب وعناد محارب ونبوءة تاريخ.

رياض نجيب الريس

الفصل الأول

بلوشستان:
وطن يبحث عن ثورة

سأبدأ بالاعتراف بأنني مدين الى شخص لا أعرفه، والى زائر لم أره من قبل، في اهتمامي بكل ما يجري في عالم جديد بدأ يطل على العرب ويفرض نفسه بشكل أو بآخر، سلباً كان أم إيجاباً، على أحداث منطقة الخليج العربي. هذا العالم اسمه بلوشستان.

كنت في بلد خليجي عندما اتصل بي هاتفياً شخص لا أعرفه قائلاً إنه يريد زيارتي. وظننت في بادىء الأمر أن الموضوع يتعلق بالمجلة التي أكتب فيها. ولما طرق بابي ذلك المساء، وجدت نفسي أمام رجل باللباس العربي طويل القامة فارعها، ومعه وفد من ثلاثة رجال. خلته للوهلة الأولى شبيهاً باللباس الإيراني في الخليج. وظننت أن الرجل إيراني جاء ليحتج أو ليناقش ما أكتبه عادة عن الخليج وإيران.

ودهشت لما بدأ حديثه بشكري على مقال كان قد صدر لي عن: «بلوشستان»، مفنداً ومحللاً ومناقشاً ما جاء فيه الى درجة أذهلني فيها بمعلوماته. ثم عرّفني بنفسه وبجماعته على أنهم من «قادة» أو «زعماء» أو «شيوخ» البلوش في الخليج. ولما سألت هذا الرجل اذا كان مواطناً في البلد الذي نحن فيه، انتفض مجيباً: «أنا مواطن عربي من هذا البلد منذ أكثر من مائتي سنة. أجدادي البلوش دافعوا عن عروبته وحموا استقلاله من الغزو الأجنبي خلال القرون الماضية. إن أهم ما فات ذكره في مقالك أن البلوش عرب ضاع لسانهم العربي إنما بقي قلبهم عربياً وبقيت وطنيتهم عربية».

وانتهى اللقاء الذي استغرق معظم الليل ونحن نجول في أفق أحداث منطقة الخليج العربي وانعكاسات الأوضاع القائمة في ايران وأفغانستان. وأسدل الليل ستاره على الكلام المباح، وجرف النهار ما علق من كلام الليل.

■ ■ ■

بين الحنـين الى الثـورة والشوق الى الوطن تنسل بين الأخبار ثورة جديدة لا يعرف العالم العربي كثيراً عنها حتى الآن، فيها من الرومانسية بقـدر ما فيهـا من العنف. هذه القضيــة هي قضيــة بلوشستــان. وبلوشستــان واحــدة من المنـاطق البعيدة عن العالم التي يلجأ إليها الضعفاء هرباً من الأقوياء، فإذا هي بلد يتأرجح بين الوطن وبين القبيلة. وتحت كل مظاهر الرومانسية من مناظر البلاد الخلابة الى زعماء القبائل بقـامـاتهم الطويلة ولبـاسهم المـزركش، الى أسواق المهربين والقلاع الحصينـة في ممـرات الجبـال، تكمن مأسـاة الواقع المتمثل بالتخلف الاقتصادي والاجتماعي والانقسام القبلي والاضطهاد الثقافي والسياسي عبر العصور.

تقع بلوشستان على الحدود بين باكستان وأفغانستان وإيران. ثلثا مساحتها في باكستان والثلث الآخر في ايران. بلوشستان الباكستانية تقع في أقصى غرب البلاد ويبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة ملايين نسمة، من أصلهم حوالي مليون من الباتان. مساحتها ١٣٥ ألف ميل مربع تجاورها بلوشستـان الايـرانية التي تبلغ مساحتها ٧٠ ألف ميل مربع، وعدد سكـانهـا حوالي المليون. وهناك تجمع قبلي للبلوش في أفغانستان يقدر بحـوالي نصف المليون. كلا الجناحين يشكلان الوطن الذي يطمح الى الاستقلال لبلد شاسع من الوديان والهضاب الجرداء ولمجتمع بدوي ذي تنظيم قبلي.

والذي يجمع البلوش الايرانيين الى البلوش الباكستانيين ليس فقط الحلم بوطن واحد، بقدر ما هو بعد البلوش الايرانيين عن مراكز السلطة في الحياة الايرانية، ولكون البلوش أقلية من السنة العرب في وسط أكثرية من الشيعـة الفـرس. يضـاف الى ذلك البلوش المتواجدون في الجنوب الغـربي من أفغـانستـان. ويتطلع كل من البلوش الايرانيين والبلوش الأفغـانيـين الى البلوش البـاكستـانيـين لثقلهم السيـاسي وتحـركهم العسكري، فالولاء عند البلوش هو للعائلة وللقبيلة، لا للدولة التي رسمت حدودهـا قوى الاستعمار التي أرادت تقسيمهم. والعائلة والقبيلة عند

البلوش ـ كما هي عند العرب ـ تعيش بين الحدود وعبر الحدود مرسومة كانت أم لا.

يرد البلوش أصلهم الى العرب سكان ما بين النهرين والى الكلدانيين من نمرود وبيلوس (من هنا جاءت كلمة بلوش) وقد برز الاهتمام مجدداً في بلوشستان منذ الثورة الايرانية، وقبلها الغزو السوفياتي لأفغانستان، ومن بعدها الحكم الماركسي الجديد في كابول. وللمرة الأولى يواجه البلوش فرصة التأثير على الأحداث العاصفة في آسيا الوسطى، للتأكيد على شخصيتهم وثقافتهم ولغتهم المميزة وللخروج بحل، إن لم يكفل لهم وطناً فقد يُؤمّن لهم شيئاً من الحكم الذاتي بعد سنوات طوال من التمرد والاضطهاد.

وينظر البلوش الى وطنهم بحكم موقعه الاستراتيجي النادر نظرة القادر على استعماله كأداة للضغط على كل من باكستان وايران، على الرغم من كونه أرضاً جرداء. لذلك فهم يرون في حرمان كل من اسلام أباد وطهران لبلوشستان بشقيها الباكستاني والايراني من التنمية الاقتصادية عبر سنوات طويلة، بالاضافة الى حملات القمع لأية مطالب بالمساعدة في تطوير المنطقة، وخاصة اذا رافق هذه المطالب شيء من الحديث عن اللامركزية الادارية ـ حتى لا نقول «الاستقلال الذاتي» لشعب متميز في تاريخه ولسانه وقوميته ـ أمراً مجحفاً. وقد دفع الفقر المدقع لبلوشستان الى هجرة أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ بلوشي للعمل في دول الخليج. ولما كان القتال هو الحرفة التي يجيدها البلوشي في الحياة أكثر من سواها، فقد كان وجودهم في جيوش دويلات الخليج التي تعاني من فقر في السكان الأصليين أمراً طبيعياً. فهم مقاتلون أشداء مسلمون سنيون، لهم تاريخ طويل وحافل في العمل العسكري منذ أيام الراج البريطاني في الهند.

إن أي نقاش لأهمية البلوش وقضيتهم بالنسبة للعالم العربي إجمالاً وللخليج العربي ودوله بالذات، ومضاعفاتها في حالة نجاحها لصورة الأوضاع في القوس الآسيوي الممتد من باكستان الى تركيا، لا بد أن يبدأ من باكستان لا من ايران، فدور ايران في ثورة بلوشستان دور تكميلي،

بينما دور باكستان دور أساسي. وقضية بلوشستان بدأت في الظهور بشكل جدي على سطح الأحداث في غرب آسيا منذ ابريل/ نيسان ١٩٨٠، إثر فشل محاولة انقلابية ضد نظام ضياء الحق العسكري وحكومته في باكستان، لعب فيه البلوش دوراً أساسياً.

منذ ذلك الحين والانقسام العميق بين كبار ضباط الجيش الباكستاني لا يدور حول الوضع الداخلي للبلاد بين من هو مؤيد للتحالف مع الولايات المتحدة، ومن هو مع التقارب مع الاتحاد السوفياتي، ولا حول مستقبل الديمقراطية ومصير الأحزاب في البلاد، بقدر ما يدور حول الوضع الوطني لباكستان ككيان واحد، بعد ان سلخت منه باكستان الشرقية وأصبحت دولة بنغلاديش المستقلة وعلى رأسها عسكري آخر يضيء بالرحمن والارشاد كما يضيء زميله بالحق والعدل، يتنافسان على الديمقراطية والفقر معاً.

ففي سنة ١٩٦٨ انقلب الجيش الباكستاني على الرئيس أيوب خان بسبب اتساع التمرد واستمرار الحرب في بلوشستان، المُطَالِبَة بوقف سيطرة البنجابيين على مقدرات الدولة وبشيء من الحكم الذاتي: وعندما أرسل ذو الفقار علي بوتو (رئيس الوزراء الممثل لمقاطعة السند ونخبة الموظفين السنديين التي تتحكم في أجهزة الدولة) الجيش مجدداً الى بلوشستان سنة ١٩٧٣، استقال الجنرال غول حسن (الممثل لمقاطعة البنجاب ونخبة الضباط البنجابيين الذين يتألف منهم معظم كادرات الجيش) احتجاجاً على سياسة بوتو في بلوشستان واقحام الجيش في معركة خاسرة ضد البلوش. فما كان من بوتو إلا أن عين الجنرال ضياء الحق ـ البنجابي الآخر ـ مكانه ليقود الحملة العسكرية ضد ثورة البلوش. فكانت طريق بوتو الى المشنقة التي علقها له ضياء الحق. وكانت طريق ضياء الحق الى الحكم.

استمر التوتر الذي تشهده بلوشستان اليوم، بفضل سياسة ضياء الحق وعسكره، والتي هي أحد الأسباب الرئيسية لقلق النظام الباكستاني وتضعضعه. وقد فشل ضياء الحق في إجراء مفاوضات جدّية وفعّالة مع الوطنيين البلوش حول حقوقهم الديمقراطية ومطالبهم في الحكم

الذاتي. لقد كانت قضية بلوشستان بمثابة «كعب أخيل» لكل نظام تعاقب على حكم باكستان منذ سنة ١٩٤٧ الى اليوم. وظلت مشكلة البلوش، مشكلة تهدد استقرار كل حكم عرفته باكستان. حتى احتل الاتحاد السوفياتي افغانستان واشتعلت نيران الحرب العراقية ـ الايرانية وأصبح الروس الى شمالهم والأميركيون الى جنوبهم في المحيط الهندي. واذا بالبلوش وقضيتهم يصبحان مدار حديث المعنيين بشؤون غرب آسيا، ومثار اهتمام الدوائر السياسية الدولية ـ ما عدا العرب، أقرب الناس اليهم وأكثرهم تأثراً بما قد يحدث على حدودهم.

ويعارض البلوش أية محاولات لتسليح باكستان، لأن تجارب الماضي قد علمتهم بأنهم سيكونون ضحايا التسلح الباكستاني الجديد، وسيدفعون ثمنه بدمائهم لا بأموال العرب التي يتهافت عليها ضياء الحق. فعندما أعيد تسليح باكستان سنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٨١ أعطى هذا السلاح الجديد مزيداً من الثقة للعسكر الباكستانيين في قدرتهم على إخضاع البلوش نهائياً.

لقد خاض البلوش حرب مقاومة ضد السلطة الباكستانية منذ تأسيس دولة باكستان سنة ١٩٤٧، الحرب الأعنف قام بها ذو الفقار علي بوتو سنة ١٩٧٣ وسنة ١٩٧٧ بتحريض من شاه إيران خوفاً من أن تنتقل الحركة الوطنية البلوشية من بلوش باكستان الى بلوش ايران. لكن بوتو أراد أيضاً في حربه ضد البلوش أن يزيد من عمليات التنقيب عن النفط والمعادن في مناطق بلوشستان التي كانت تحد منها وتهددها المقاومة البلوشية. وأسفرت تلك الحرب عن ٣٣٠٠ قتيل باكستاني باعتراف الحكومة، بينما تؤكد «جبهة تحرير بلوشستان» أن الضحايا الباكستانيين كانوا في حدود ٦٠٠٠ قتيل وجريح. ولم يستطع بوتو أن ينقب لا عن النفط ولا عن المعادن. ولم يستطع وقف تصدير البلوش لثورتهم الوطنية الى اخوانهم البلوش في ايران، حتى جاءت الثورة الايرانية لتقتلع الشاه، وجاء انقلاب ضياء الحق العسكري ليقتلع بقايا ديمقراطية حكم بوتو.

لم يتجاوب البلوش مع وقف اطلاق النار غير الرسمي الذي أصدره

ضياء الحق بعد توليه السلطة من بوتو. سنوات من الوعود المقطوعة التي لم يلتزم بها الطرف الباكستاني ومحاولات الاخضاع العسكري جعلت البلوش يشككون في أية هدنة أو عفو يصدر من إسلام آباد. وآلاف البلوش اللاجئين الى افغانستان ما زالوا في خيامهم هناك منذ ذلك التاريخ، تشهد على خذلان النظام الباكستاني. ومقاتلو «جبهة تحرير بلوشستان» ما زالوا ينشطون في جبال بلوشستان من دون ان تتوقف المناوشات بين البلوش والقوات الباكستانية حتى اليوم.

قال لي أحد زعماء البلوش في الخليج، وهو يكاد يغص، إنه إذا كان الكثيرون من البلوش ما زالوا يفضلون البقاء ضمن الدولة الباكستانية في إطار من الحكم الذاتي بشرط إعادة الديمقراطية الى البلاد، وتحقيق المطالب السياسية لبلوشستان، إلا أن الخيار السوفياتي ليس بعيداً عن تفكيرهم. وسبب ذلك ليس اليأس فقط من وعود ضياء الحق المستمرة، وانما اعتقادهم أنه في حالة هجوم سوفياتي فإن الجيش الباكستاني لن يحارب. خمسون بالمئة من ضباط الجيش الباكستاني يشغلون مناصب مدنية لادارة الحكم العرفي في البلاد. ولو قرّر ضياء الحق دخول الحرب لأسقطه ضباط الجيش. فالضباط ـ كما قال لي هذا الزعيم البلوشي الخليجي ـ يريدون سيارات مرسيدس لا دبابات، ووظائف مدنية لا مواقع على خطوط القتال. لذلك فالخيار السوفياتي مطروح بوضوح تام. «لنكن منذ اليوم مع الاتحاد السوفياتي بخيارنا ورغبتنا وبعض شروطنا بدل أن نكون معه بغير خيارنا وبكل شروطه» ـ حسب تعبير ذلك الزعيم البلوشي.

سقط نظام الشاه تحت أقدام الثورة الخمينية الاسلامية، بعد أن حاول طوال حكم اسرته أن يلغي الشخصية البلوشية. وترك الشاه فراغاً لم تكن بلوشستان الايرانية مهيأة له. وأدرك البلوش الايرانيون أن خيارهم مع الثورة الايرانية لا بد أن يكون خياراً تاريخياً حاسماً ـ إما إيجابياً بقيام كيان ذي استقلال ذاتي، لا تزال الثورة الايرانية ترفض التسليم به وبغيره من الكيانات القومية التي تتألف منها ايران. وإما سلبياً بالخضوع لسياسة الشاه القديمة أو الاصطدام بالثورة. وإذا

كان البلوش سيتحولون الى الثورة التامة والمطالبة باستقلال كامل، فلا بد من تنسيق للجهود بين البلوش في كل مكان. والتنسيق بين النظامين بالنسبة للثوار سلاح ذو حدين، اذ سيعني أن الحكومتين الباكستانية والايرانية ستنسقان أيضاً للقضاء على بذور الثورة وامتدادها. والبلوش الايرانيون كانوا آخر من جاء لتأييد ثورة خميني، وآخر من صدق أن الشاه قد رحل دون عودة.

لذلك كانت «زهدان»، عاصمة بلوشستان الايرانية، آخر مدينة في ايران حطمت تمثال رضا شاه والد الشاه المخلوع. ولم تفعل ذلك إلا عندما وصلتها أنباء استسلام الجيش في طهران لأنصار الخميني والثورة. بعدها سُحب التمثال بالحبال وحُطّم. وظل التحفظ البلوشي تجاه خميني وثورته حتى الآن. فلا تجد أكثر من صور صغيرة لخميني في المتاجر العامة. وكثير من البلوش ما زالوا متأثرين بدعاية حكومة الشاه السابقة حتى أن بعضهم يقول: «عندما يذهب الملك تأتي الشيوعية. انظر ماذا حل في أفغانستان».

من الأسباب الرئيسية لمعارضة البلوش لخميني وثورته أن نظام الشاه السابق كان قد غض النظر عن «الصناعة والتجارة» الوحيدة التي يمارسها بلد فقير أجرد كبلوشستان، وهي التهريب. والتهريب هو خط سير مزدوج من أفغانستان وباكستان الى ايران ودول الخليج، ومن دول الخليج الى ايران وباكستان وافغانستان. وأصبح التهريب النشاط الاقتصادي الوحيد للبلوش. فهم يهربون الافيون والسلاح من أفغانستان وباكستان الى ايران والخليج. ويهربون الذهب والساعات والراديوات والكاميرات والمعدات الالكترونية والبضائع الاستهلاكية والكماليات من الخليج عبر المراكب الصغيرة الى ايران أو باكستان، ومنها بالبر الى أفغانستان وسواها من المناطق الجبلية. أما الأفيون فيهرب من المرافىء الايرانية على الخليج الى اوروبا ومنها الى اميركا. وكان أفراد نظام الشاه شركاء مع «سردارات» البلوش في عمليات التهريب، فكانت تجد دائماً طريقاً سهلاً وآمناً. وجاءت الثورة تحاول أن تضع حداً لعمليات التهريب لم تنجح، إنما أخافت البلوش الذين أصبح التهريب مصدر

رزق أساسياً لهم. إلا أن الثورة الايرانية عادت لاستعمال البلوش في عمليات تهريب السلاح والذخيرة وغيره من قطع الغيار ومن المواد الأولية الأساسية التي تحتاجها الحرب من دبي وأبو ظبي والشارقة بعد اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية.

لكن هناك سبباً أعمق وأهم من الدافع الاقتصادي للتهريب الذي يخاف البلوش أن يخسروه ما دام خميني قد سيطر نهائياً على مقدرات ايران، وهو أن البلوش، وهم من السنّة، وجدوا في التأكيد على شيعية ثورة خميني محاولة أخطر من محاولات نظام الشاه في سحق هويتهم الدينية والتاريخية. وازدادت هذه المخاوف مع نشر الدستور الايراني الجديد ومع سيطرة آيات الله من رجال الدين الشيعة على مقدرات البلاد. ورفضت ثورة خميني السماح بتعليم اللغة البلوشية في المدارس كما كان الشاه قد رفض ذلك من قبل وطوال ثلث قرن من الزمن. الى جانب أن جامعة زهدان لا تقبل الا نصف طلابها من البلوش، أما الباقي فهم من مختلف أنحاء ايران. كذلك فإن أكثر موظفي الدولة وأفراد الشرطة والأمن هم من غير البلوش في بلوشستان. وعلى الرغم من محاولات الشاه في «تفريس» بلوشستان فقد ظل البلوش لا يتقنون اللغة الفارسية، ويتكلمون لغتهم الخاصة التي هي مزيج من العربية والأوردو والفارسية، الأمر الذي أصبح حاجزاً عائقاً في وجه توظيفهم وتعاملهم مع الدولة الايرانية، بقدر ما ظل لباسهم الوطني وشكلهم المميز عائقين دون اندماجهم اندماجاً كاملاً في المجتمع الايراني.

وحاول الشاه إبّان حكمه، بعد أن كان والده رضا خان قد قضى على نظام «السردارات» في بلوشستان وأفرغها من زعمائها وحاول تفريسها بالقوة، أن يقوم ببناء قاعدة «شاه بحر» الواقعة جنوب بلوشستان الإيرانية على خليج عُمان (التي كان مقدراً لها أن تكون أقرب قاعدة عسكرية بحرية ـ جوية لأية دولة في بحر العرب والمحيط الهندي لولا سقوط النظام) كمدخل الى تنمية بلوشستان الايرانية عن طريق صرف ١٠٠ مليون دولار في السنة ولمدة خمس سنوات، بداية لتنمية هذه المنطقة الفقيرة والحد من هجرة أبنائها الى الخليج. لكن سياسة الشاه القمعية

ضد أهلها بدءاً بوجود ٥٠ ألف جندي ايراني فيها، وانتهاء بسيطرة يد «السافاك» الحديدية، أبقت المطالب البلوشية في قبضة النظام الايراني.

وظلت مطالب بلوشستان مطالب متواضعة بالنسبة لمطالب القوميات الايرانية الأخرى. وبرز بعد الثورة «حزب الوحدة الاسلامية» المعبر عن مطالب النخبة البلوشية. وسافر عند بداية الثورة أحد زعماء الحزب وأحد رجال الدين السُّنة المرموقين في بلوشستان مولوي عبد العزيز مُلّا زاده لمقابلة آية الله خميني في قم حاملاً مطلباً واحداً: «إن البلوش يؤيدون الثورة الايرانية ما دامت الثورة تحترم شعائرهم الدينية والثقافية ولا تحاول أن تفرض عليهم مذهب الأغلبية وما دامت حقوقهم القومية مصانة». لكن المطالب غير الرسمية كانت تشمل برنامجاً كاملاً للامركزية والاستقلال الذاتي وتعليم اللغة البلوشية في المدارس وتعيين البلوش في المراكز والوظائف الأساسية في بلوشستان، والحق في حرية الاتصال مع بلوشستان الباكستانية وحصة أكبر من موازنة الدولة العامة للتنمية.

ولم يكن جواب الخميني وحكومته في طهران بأكثر من وعد بالنظر في المطالب التي تقدم بها البلوش، والتي لم يتحقق منها شيء الى الآن. ولم تُرضِ الوعود الكلامية البلوش وخاصة بعد مواجهة الحكومة مع الأكراد. وبدأ الخوف يعم الحركة البلوشية وينتقل الحديث تصعيداً من الكلام حول الفيدرالية والاستقلال الذاتي الى الكلام عن الاستقلال التام والوحدة مع بلوشستان الباكستانية. وظل خوف البلوش الأساسي، بعد تجربتهم لحكم الشاه، يكمن في الشوفينية الفارسية والتعصب الشيعي.

■ ■ ■

بعد بداية الانسحاب السوفياتي من أفغانستان، ووقف الحرب العراقية ـ الايرانية في سنتها الثامنة من دون أي أمل بنهاية سريعة لمفاوضات السلام بين البلدين وإسقاط قضية عربستان منها، وتحرك الأكراد والأرمن، ومحاولة تصدير الثورة الايرانية الى العالم العربي

والاسلامي، أصبحت بلوشستان هي المكان الآخر المرشح للانفجار. ففي بلوشستان أقلية صغيرة من طبقة المتعلمين سكان المدن، وأكثرية ساحقة من القبائل الرحل ذات الأغلبية الأمية. وفي السنوات العشر الأخيرة كانت الطبقة البلوشية المتعلمة تتطلع نحو أفغانستان هرباً من تعسف حكم الشاه وخوفاً من عسكر باكستان، متأثرة الى حد كبير بالدعاية السوفياتية والآراء الاشتراكية التي تحاول موسكو أن تستميل بواسطتها هذه الطبقة. وكان صراع البلوش المباشر واحتكاكه مع النظام الباكستاني أكثر منه مع النظام الايراني.

خلال السنوات العشر من السبعينات والثلاث الأولى من الثمانينات، اتسع نطاق ونفوذ الطبقة المتعلمة في الأوساط القبلية البلوشية، التي تعيش في مجتمع بدوي يعتمد على التنقل بحثاً عن المرعى لأغنامها ومواشيها. وسط هذا الاطار الاجتماعي المتخلف كانت الدعوة لحركة الاستقلال البلوشية تأخذ مداها، وكان الجيش الباكستاني والجيش الايراني يقمعان بلا هوادة أي تجمع أو تنظيم بلوشي على الأرض أو تحتها، خوفاً من أن يصبح نقطة مقاومة ضد الحكم في كل من اسلام آباد وطهران. وسبّب الإرهاب الباكستاني ـ الايراني المشترك طوال السنوات الماضية لجوء عدد كبير من العائلات البلوشية مع أطفالها وخيمها ومواشيها الى افغانستان، التي أصبحت محجة الحركة البلوشية منذ أيام نظام محمد داوود، الى نظام نجيب الله اليوم.

وفي كابول بدأ الاتحاد السوفياتي يغري كعادته المثقفين من البلوش بفرص التعليم العالي في موسكو. واغتنم عددٌ كبير من البلوش هَذه الفرصة وعادوا من معاهد الاتحاد السوفياتي، كما هي العادة في أغلب الأحيان، كمجموعة من الثوريين الرومنسيين. وعندما وقعت الثورة الأفغانية ضد نظام داوود في نيسان/ ابريل ١٩٧٨، نشط الجناح اليساري في الحركة البلوشية وأصبح قوة فاعلة كما لم تكن من قبل في السياسة الباكستانية بالذات.

في بدء الثورة الايرانية نشطت اتصالات اليسار الايراني الممثل بحزب «فدائيين خلق» وحزب «تودة» الشيوعي بالزعامات البلوشية في ايران

طالبة تأييدها في معركته مع الخميني والجماعات الاسلامية اليمينية، لقاء وعد بمنحهم مطالبهم بالحكم الذاتي والديمقراطية إذا تولى اليسار السلطة في ايران بعد إسقاط الخميني. وظل وعد اليسار الايراني بتحقيق مطالب البلوش يغـري شبـاب البلوش من دون أن تكون هناك ثقة في مواقف اليسـار من الأقليـات القـومية، حتى وقعت الحرب العراقية ـ الايرانية، وتمّت تصفية اليسار الوطني الماركسي من ساحة السياسة الايرانية.

وبـدأت تجمعـات البلوش الجـديدة التي تدعم مطالب الاستقلال والوطن وجبهة التحرير تتخذ أشكالاً جديدة بعيداً عن القبلية التقليدية. منهـا أن أكثـر هذه التجمعـات هي من العمال والطلاب والعسكر من مختلف الانتمـاءات والخلفيـات القبلية. لذلك استطاعت فوضى الثورة الايرانية التقريب بين البلوش الباكستانيين والبلوش الايرانيين، وأزالت العزلة التي كانت قائمة بينهما، وكسرت الى حد بعيد الحواجز الجغرافية والقبلية التي كان نظام الشاه السابق قد أقامها طوال ثلث قرن.

ومنذ ١٩٧٣ الى اليوم، سافر عشرات من شباب البلوش الذين نزحوا الى كابول وهرات وخندهاد في أفغانستان الى الاتحاد السوفياتي وكوبا للتدريب «العسكري والعقائدي». بعضهم دخل جامعة باتريس لومومبا في موسكو، وبعضهم الآخر فضل مناخ هافانا الحار وسيكارها الفاخر. واليـوم بعد حوالي عشر سنوات من الاضطهاد الباكستاني ـ الايراني المشتـرك، أصبـح الكـادر المـاركسي السوفياتي داخل الحركة الوطنية البلوشية جاهزاً للعمل. وهذا الكادر الشيوعي هو الأكثر فعالية وتنظيماً وسط جبهة التحرير، والأكثر تأثيراً على مجريات الأمور. وهنا يكمن خطر سرقة موسكو لثورة بلوشستان من الوطنيين المعتدلين أمام أنظار عرب الخليج والعالم كله.

إن كل هذا لا يمنـع بلوشستـان، بحكم موقعها الاستراتيجي على مدخل الخليج، من أن تفرض نفسها على القوى الكبرى. والبلوش كشعب فردي فخور بنفسه، لا يريد حتى الآن أن يصبح أداة في اللعبة الدولية وفي الحرب الباردة الدائرة في المنطقة على حساب مطالبهم الاستقلالية.

لكن شاءوا أم أبوا فهم وسط المسرح وفي مواجهة الأضواء. ولعل ردود فعل الغرب ـ وأميركا بالذات ـ السريعة والقاضية على السياسة السوفياتية في المنطقة، قد أعمت مخططي السياسة الغربية عن الوضع الداخلي الحقيقي للنظام الهش في باكستان، ولحقيقة تحركات البلوش وتحالفاتهم وخطورتها على كل ما يجري في مداخل ومخارج وعلى ضفاف الخليج العربي.

واستمرت حرب العراق وايران، التي تقف فيها الدولتان الكبيرتان على الحياد ظاهرياً. ومهما كانت نتائج هذه الحرب على الصعيدين العسكري والسياسي، فلا بد من أن تترك بصماتها على الحركة البلوشية، التي ستجد في مضاعفاتها مخرجاً للتلويح بأهدافها والسعي وراء بروز شخصياتها والتأكيد على مطالبها والضغط على مضطهديها.

ولا بد لهذه الحرب أن تعيد فرز مفاهيم الحركات القومية للشعوب المختلفة التي ترزح تحت حكم الفرس في ايران والبنجابيين في باكستان. ولا بد لهذه المفاهيم أن تعيد أيضاً طرح الحلم بالوطن انطلاقاً من حس قومي جديد، بدأ ينمو في الشخصية البلوشية المتمردة على قبيلتها والساعية للتعبير عن شخصيتها الوطنية.

لكن السؤال الذي يطرح اليوم في الأوساط الدبلوماسية وفي أروقة صانعي السياسة الخارجية في العالم هو: هل يريد الاتحاد السوفياتي فعلاً إقامة دولة مستقلة في بلوشستان؟

الجواب على سؤال كهذا لا يقتصر فقط على الاتحاد السوفياتي، لأن الأطراف ذات الاهتمام الكبير في هذا الموضوع تشمل بريطانيا والولايات المتحدة والصين وايران والهند وباكستان ـ ودول الخليج العربي حتى لو أرادت أن تستمر في تجاهل القضية البلوشية. إنما من المؤكد أن الولايات المتحدة والسياسة الأميركية في غرب آسيا لا تؤيد ولا تريد إقامة وطن بلوشي مستقل أو شبه مستقل.

بسقوط أفغانستان في المعسكر السوفياتي، تحاول موسكو اليوم أن تؤثر في مجرى التطورات الآخذة في الانفجار في المنطقة. وإذا نجح الاتحاد السوفياتي في تحقيق هدفه بانشاء دولة للبلوش يسيطر على

مقدراتها بالطريقة التي نجح فيها في أفغانستان، يكون قد توصل الى الطمـوح التاريخي في فتح طريق برّي من حدوده الى المياه الدافئة في الخليـج العـربي والمحيط الهندي. ومع وجود أكثر من ستين بالمئة من مخزون نفط العالم على جانبي هذا الطريق، يكون هذا الطموح اليوم أكبر مما كان عليه أيام حكم بطرس الأكبر. ويكون الاتحاد السوفياتي قد طوق فعلا منابع النفط في الخليج والجزيرة العربية في الوسط الجنوبي وما تبقى من باكستان غرباً وايران شرقاً، وهذا ما يخيف الغرب ـ ويجب أن يخيف العرب ـ ماضياً وحاضراً.

الحـرب العـراقيـة ـ الايرانية واستمرارها طوال السنوات الثماني الماضية، يُبرز الى الوجود القضية البلوشية بشكل حاد وسافر، ويهدد كل المسلمـات القومية والاقليمية التي تعاطت فيها الأنظمة العربية خلال السنـوات المـاضيـة وعلى الأخص الأنظمة الخليجية. إلا أن موضـوع بلوشستان يعني العرب في الخليج مباشرة بقدر ما يعني الأنظمة الحاكمة للبلوش في كل من إيران وباكستان وأفغانستان. غير أنه يجب النظر الى أمرين أساسيين في ما يعني الموقف العربي من قضية بلوشستان.

الأول: أن الحـركة البلوشية هي حركة قبائل عربية تمتد الى زمان بعيد، ويمكن كتابة مجلدات في تأكيد عروبة البلوش، وبالتالي فإن العرب أمام موقف ملزم قومياً وعصبياً.

الثاني: إنه اذا لم يحتضن العرب ـ والمعتدلون منهم بالذات ـ قضية بلوشستـان فإن الحركة البلوشية واقعة حتماً تحت النفوذ السوفياتـي والتـأثـير الأيديولوجي الماركسي. فبدلاً من أن تقوم دولة عربية وطنية المعالم، ستقوم دولة شيوعية ماركسية الميول. ويكون العرب قد أضاعوا الفرصة التي منحهم إياها التاريخ في الحفاظ على عروبة البلوش.

لقد كانت الأنظمة الخليجية طوال السنوات الماضية، قبل الاستقلال وبعده، متحفظة بل معادية، لأية حركة مطالب للبلوش، إما انسجاماً مـع السيـاسـة البريطانية في المنطقة تلك الأيام، أو خوفاً من نظام الشاه السابق في ايران الذي كان يهدد هذه الأنظمة العربية. وبقدر ما كان الشـاه يحـاول طمس معـالم عروبة البلوش، كانت الأنظمة الخليجية

نفسهـا، تحاول أن تبتعد عن المشكلة، إمّا بتعاميها عنها أو خنق أية محاولة لتجمعها على أرض عربية. وكان هذا مفهوماً قبل سقوط الشاه وزوال النفوذ البريطاني نهائياً في داخل الأنظمة. أما الآن وقد أصبح الوضع في ايران الخميني على ما هو عليه يهدد صلب كل نظام عربي في الخليج، وأصبحت طهران على أبواب مضيق هرمز، فإن التحفظ العربي على قضية بلوشستان يجب أن يسقط.

لدرء هذا الخطر يجب على عرب الخليج إنقاذ الحركة البلوشية من كل الاغراءات «الثورية» المحيطة بها، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا باتخاذ قرار أساسي. الاعتراف بالبلوش كشعب عربي متميز له خصائصه وله مطالبه القومية المحقة، ولديه من ارتباطه العربي التاريخي وإسلامه الحقيقي كل مقومات الوطن.

عندما يتخذ هذا القرار يتبعه قرار لاحق أكثر خطورة، وهو أن قيام وطن بلوشي هو أمـر يعزز ويخدم الأنظمة الخليجية، ويؤكد من عروبة الخليج، ويزيد من حمايته في وجه الهجرات الآسيوية غير العربية، سواء أكانت من الهند أم الفليبين أم كوريا. والذي يعترف «بعروبة» الصومال وجـزر القمر وجيبوتي ـ وربما اريتريا ـ يجب أن لا يجد غضاضة في الاعتـراف بعـروبـة بلوشستـان، التي لا تحتـاج الى تأكيد لأصالتها العربية. وقد يجد العرب في بلوشستان العصر الحديث كسباً يعادل كسب الفتوحات الاسلامية الغابرة.

من الأكيد أن هناك من العرب المسلمين من يقول إن قيام بلوشستان سيضعف ويفتت بلداً إسلامياً اسمه باكستان. وذلك من الطبيعي. إنما أيهما يا ترى أهم، في منظار تاريخي أم في منظار مصلحي آني: قيام وطن عربي جديـد أصيـل في قوميته واسلامه، أم الحفاظ على بلد اسلامي الهوية، مفكك البنية، منهار الاقتصاد، يتناوب العسكر على حكمه، يعيش على القمع ويحاضر الناس بالفضيلة، مصطنع القومية، مهدد بالاجتياح في كل لحظة؟

■ ■ ■

حافظ البلوش في باكستان على زعاماتهم القبلية، أو نظام «السرد ارات»، حين حافظت بريطانيا عند تأسيس دولة باكستان وتقسيم الهند سنة ١٩٤٧ على كافة الحقوق الاقطاعية التي كانت ممنوحة لهم منذ أيام الملكة فيكتوريا.

ولما كانت بلوشستان مجتمعاً إقطاعياً قبلياً، فإن تحالفاتها تحالفات قبلية. وهي موزعة في أربع مناطق رئيسية:

١ـ بلوشستان الشرقية في باكستان: الذي أصبح نضالها مختلطاً بين النضال من أجل وطن قومي والقضاء على نظام ضياء الحق، إلى حين مصرعه.

٢ـ بلوشستان الجنوبية الايرانية، التي بدأت تبحث عن وسيلة للتفاهم مع سلطات الثورة الايرانية من قبل الحرب مع العراق.

٣ـ بلوشستان الشمالية التي تقع بين أفغانستان وايران، التي اختلط عملها بين مقاومتها نظام ضياء الحق قبل مصرعه وبين حرصها ان لا تقع في أحضان السوفيات كلياً. لذلك فهي تلعب دور المساعد للثوار الأفغانيين بحكم عوامل الدين المشترك والضيافة القبلية التقليدية، من دون ان تُحرج علاقاتها كلياً مع موسكو. ولذلك فإن دورها دور متواضع بعيد عن الأضواء.

هناك يَمُد البلوش، الثوار الأفغانيين بالطعام والمواد الطبية وبعض المال، من دون أن يتورطوا بقتال فعلي ضد القوات السوفياتية. وأكثر هؤلاء يتلقون مساعداتهم من الجانب الايراني وبتحريض من بعض الجماعات الدينية الايرانية.

زعيم هذا الجناح مولاي عبد العزيز ملازاده، الذي يترأس حزب «اتحاد المسلمين البلوش»، ينطلق من ضرورة تضامن السنة البلوش مع السُّنة الأفغانيين. ومحمد شريف زعيم البلوش الأفغانيين كان يتصل بطهران ويزورها بحثاً عن تفاهم مع الخميني وجماعته لتشكيل حلف من السُّنة البلوش في أفغانستان مع الشيعة في ايران ضد نظام ضياء الحق الخارج عن الاسلام في رأيهم، ووقوفاً في وجه الشيوعية الملحِدة الممثلة بالقوات السوفياتية التي تحتل أفغانستان.

وقد أوقعت الحرب في أفغانستان بين قوات النظام الموالي لموسكو والمجاهدين الأفغانيين انقساماً في صفوف الحركة الوطنية البلوشية. زعماء البلوش في حزب «عوامي الوطني» المحظور في باكستان ـ قوات بخش بيزنغو وعطا الله منجل وميرخير بخش مري ـ وحدوا قواتهم في هذا الحزب اقتناعاً منهم أن باكستان التي تحكمها النخبة من البنجابيين ستستخدم القوة للحفاظ على مراكزها ضد القوميات الأخرى كالسنديين والباتان والبلوش.

لكن الحزب انقسم عندما خرج بيزنغو من السجن سنة ١٩٧٨ وألّف حزب «باكستان الوطني» وبدأ محادثات مع نظام ضياق الحق. حتى أنه حاول إقامة تحالف مع حزب الشعب (حزب بوتو) أحد اعداء الحركة البلوشية الأصليين. وخسر بيزنغو قواعده الشعبية لدى البلوش من جراء مواقفه المهادنة من النظام. وتشتت شمل الزعماء البلوش الثلاثة، بينما استمرت «الجبهة الشعبية لتحرير بلوشستان» متمسكة بموقفها المبدئي: وهو الاستمرار في النضال ضد النظام الباكستاني عن طريق القتال. لكن الجبهة تؤكد باستمرار التزامها المطلق ورغبتها الدائمة في الابتعاد عن القوى الكبرى خوفاً من الابتلاع.

كذلك انقسم «الحزب الوطني الديمقراطي» بزعامة والي خان، وهو الحزب الذي يمثل المقاطعة الشمالية الغربية الحدودية في باكستان، والذي يضم تجمع الباتان والبلوش، الى فريقين: اليسار وأكثره من البلوش مع الثورة الأفغانية. واليمين وأكثره من الباتان ضد الثورة في كابول. اليسار البلوشي أكثر عداء للحكم المركزي في باكستان والحكم الديني في ايران. واليمين الباتاني أكثر تفهماً وتفاهماً مع الحكم المركزي الباكستاني. إنما كلاهما يطمحان الى الاستقلال الذاتي في وطن منفرد. واحد أكثر تعاطفاً مع الثورة الشيوعية في كابول، وآخر لا يطيق حكام كابول لأسباب تاريخية قومية لا علاقة لها بهوية النظام الشيوعي هناك.

إلا أنه وضعاً للأمور في نصابها الحقيقي، يجب عدم تضخيم حجم اليسار في الحركة البلوشية. أهمية هذا اليسار هي خطره في أن يسرق بلوشستان المستقلة عند قيامها، وقد أصبح له في العاصمة الأفغانية

سند ونصير مباشر منذ سقوط الزعماء التقليديين الثلاثة ـ قوات بخش بيـزنغو وعطا الله منجل ومير خير بخش مري ـ بين المنفى الطوعي في لنـدن والسجن القسري عند ضياء الحق. ومن ثم غياب زعيم للبلوش العـرب، من المقيمين والمستوطنين في الخليج ومن الوافدين اليه، لوقف اتجاه بلوشستان كثورة وحركة نحو اليسار.

ومـع سقـوط الزعماء التقليديين سقط اليمين في معركة البلوش مع السلطة البـاكستـانيـة. لذلك ينـظر البلوش بنوع من الرضى لأحداث أفغـانستان والحرب العراقية ـ الايرانية ونتائجها ومضاعفاتها داخل ايران. ذلك الرضى الممزوج بالتوازن في أن هناك من يهدد ضياء الحق ونـظامـه مع شيء من الاستسلام القدري بأنه اذا حاول الروس غزو باكستان فإن من غير المجدي التصدي لهم. واذا سقط الخميني ونظامه في طهران من جراء الحرب العراقية، فمن غير الضروري الوقوف الى جانبه.

في هذا المجال ليس هناك أبلغ مما قاله السردار أكبر بوغتي زعيم قبائل بوغتي التي يبلغ عدد أفرادها ١٠٠ ألف نسمة. يقول أكبر بوغتي: «اذا كان الجيش الباكستاني ليس قادراً على صد الغزو السوفياتي المحتمل، فلماذا يُراد منا نحن المدنيين غير المدربين وغير المسلحين أن نقف في وجه ذلك الهجوم السوفياتي. واذا فشل الخميني في التصدي للعراق بحرسه الثوري وجيشه الأميركي التدريب والسلاح، تحت راية طائفية لا ننتمي اليها، فلماذا يُراد منا ان ندافع عن نظام يضطهدنا أكثر من نظام الشاه السابق الذي أسقطناه. من اجل مَن؟ ضياء الحق ام الخميني؟

ولما كانت الحركة البلوشية تعني دول الخليج مباشرة بسبب النتائج المترتبة عليها في حال نجاحها أو فشلها، وللعلاقة التاريخية الوطيدة التي تربط بين البلوش وعرب الخليج، فمن الضروري التوقف سريعاً عند هذه العلاقة. فزعامات البلوش تنقسم الى جزئين رئيسيين:

الجـزء الأول في القسم الشمـالي من بلوشستان الايرانية. والجزء الثـاني في القسم الجنـوبي من بلوشستـان الباكستانية ـ وخاصة في مكران، وهي التسمية العربية للاقليم بكامله والتي درج البلوشيون على

استعمـالهـا. وهذه الزعامات تخضع كلها لما يعرف بـ «أولاد محمد»، المؤلفة من أربعة فروع موزعة في أنحاء الجزيرة العربية. وزعامة «أولاد محمـد» تشمل جزءاً كبيراً من بلوشستان كما تشمل القبائل البلوشية الموجودة في عُمان والإمارات والبريمي.

فرع في سلطنة عُمان بزعامة الشيخ او المير (حسب التعبير البلوشي) سعيد بن راشد، وفرع في دولة الامارات العربية بزعامة الشيخ «المير» مراد آل بركات، الذي يشمل القبائل الموجودة في المناطق الجنوبية الغربية من مكران، وخاصة في الساحل المطل على بحر العرب. وفرع في البحرين بزعامة الشيخ محمد بن حسن آل محمد. وقد ارتبطت زعامته في الفترة الأخـيرة بالعمل السياسي أكثر من ارتباطها بالنواحي القبلية الموجودة أصـلا. وقـد انتقل في السنوات الأخيرة الى الاقامة في المملكة العربية السعودية. أما الفرع الرابع فقط اختلط بالفروع الثلاثة عند نزوحها من بلوشستان في عهد نادر شاه في القرن التاسع عشر. فمنهم من اشترك مع سلطان عُمان احمد بن سعيد في فتح زنجبار، ومنهم من تحالف مع آل كعب في المحمرة في عربستان. ومنهم من تعاون مع آل خليفة عندما كانوا في الكويت وعاونوهم في فتح البحرين وانتزاعها من الفرس.

والبلوش هم سكان القلاع في كل مكان. حتى صاروا يدعون بأهل القلاع. فعندما دخلوا البحرين سنة ١٧٨٢ ضمن القوات التابعة لأولاد محمـد والتي اشتـركت مع القبائل العربية الأخرى في الاستيلاء على البحرين من قبضة الشيخ ناصر حاكم بوشهر المدعوم من حكومة فارس، احتلوا القـلاع في البحـرين وبقـوا فيهـا. وفي سنة ١٨٦٨ ومع بداية الاحتلال البريطاني للبحرين، قامت البحرية البريطانية بقصف قلعتي أبي ماهر وعراد اللتين كان يسكنهما أولاد محمد وأتباعهم. كذلك احتلوا القلعتـين الشهيرتين في مسقط ـ الميراني والجلالي ـ عندما استقدمهم السلطان أحمـد بن سعيـد لمعـاونته في فتح افريقيا الشرقية. وتغيرت محالفاتهم مع الظروف السياسية وتقلبات الزمن. وعلى الرغم من علاقتهم العمـانيـة القـديمة، انحازوا الى السعودية في خلافها مع عمان حول البريمي أيام السلطان سعيد بن تيمور. أما مقاطعة جوادر الواقعة جنوب

بلوشستان على ساحل عمان فقد ظلت تابعة لسلطنة عمان وتحت الحكم المباشر للسلطان سعيد بن تيمور والد السلطان الحالي حتى سنة ١٩٥٨، عندما استردتها باكستان في مقابل تعويض مالي قدره ثلاثة ملايين جنيه استرليني، بعد أن كانت مركزاً لاستيراد الرقيق وتجارة الأسلحة وتهريبها طوال النصف الأول من هذا القرن. وقد حدث تطور خطير في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٥، اذ عقد لأول مرة في تاريخ البلوش السياسي اجتماع حضره ١٥ زعيماً من البلوش الايرانيين، ولم يشترك فيه أي زعيم بلوشي من مناطق اخرى. وكان الاجتماع برئاسة محمد بن حسن آل محمد. وقد قامت دولة خليجية بالضغط على الزعماء البلوش العرب لوقف أية اجتماعات مماثلة مستقبلاً. وكان هذا أول تحرك سياسي علني للبلوش.

إذا كان ذلك في الماضي الغابر أو القريب، فإن الحاضر الفوري والمستقبل سيفرضان مواقف معينة على العرب تجاه الأوضاع القائمة في بلوشستان وفي ظل السياسة الدولية الراهنة ومعطياتها المتغيرة.

■ ■ ■

يبقى الحلم بالوطن. صحيح أن الحس القومي الوطني ليس نامياً عند البلوش بالشكل المتعارف عليه عند العرب أو الأوروبيين، إنما كانت هناك أمة بلوشية أقامت دولة في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، قبل وصول البريطانيين الى شبه القارة الهندية وبلاد فارس. والحلم يتجدد اليوم بوطن اسمه «بلوشستان»، يضم البلوش في باكستان وايران وأفغانستان.

يكفي البلوش فخراً أنهم يَدْعُون في لغة شبه منقرضة الى عروبة من لا يتكلم العربية. ألا يكفي أن تطالب هذه الثورة بوطن، كذلك تطالب بلغة، انتسب كل تارخ أجدادها اليها. إذن لا بد ان يعيد الوطن الضائع الى اللسان الأعجمي عربيته بعد ان تاه في مسيرة التاريخ الطويلة ليحقق ذاته ويفرض على العرب الاعتراف بأسباطهم الضائعة.

البلوش في العالم العربي

مصر ٨٠٠,٠٠٠ (ويسكنون في الجنوب الشرقي من مصر/ النوبة)
عُمان ٢٥٠,٠٠٠
الإمارات ١٥٠,٠٠٠
السعودية ٦٠,٠٠٠
البحرين ١٢٠,٠٠٠
الكويت ٥٠,٠٠٠
العراق ٣٠,٠٠٠
سورية ١٠,٠٠٠

أفريقيا الشرقية ١٠,٠٠٠ (من ضمن الهجرة العمانية): زنجبار، تنزانيا، أوغندا

اليمنان (لا يعرف عددهم بالضبط بعد انصهارهم مع القبائل اليمنية الأخرى).

الفصلُ الثاني

عربستان :
وداع الحُكم العربي

في البدء أخافني. لا أعرفه. جاء يسأل عني عندما عرف أنني في دبي. طرق بابي وسألني: هل انت فلان؟ تلفت حوله كثيراً قبل أن يدخل، ولما تأكد من هويتي دخل وجلس.

قال لي: «أنا فلان. أنت لا تعرفني. لا أحد يعرفني هنا. اسمي ليس مهماً. أنا شاب عربي من الأحواز هارب من حرب الابادة في المحمرة. أتعرف أين الأحواز وأين المحمرة؟ في عربستان. جئت الخليج منذ حوالي شهر هرباً من الاضطهاد الايراني ومحاولاً الاتصال بمواطني. سعيت اليك لما عرفت أنك في هذا البلد. نحن نتابع الصحافة العربية كلها ونقرأ لك منذ زمان. صار لك أكثر من عشر سنوات وأنت تتفلسف في شؤون الخليج. أليس كذلك؟ قلت لعلك تروي قصة بلادي وتشملها برعايتك أو قلمك».

لم أتمالك من أن أبتسم. ابتسم هو لما شعر أن سخريته قد أدت غرضها. قال لي: «صدقني أنني لا أمثل لا حزباً ولا هيئة ولا منظمة. أنا أبحث عن حزب أو هيئة أو منظمة لتتبنى قضية بلادي. أنا لا أخاف إلا عيون آيات الله التي تلاحقني. في الماضي كانت عيون الشاه. اعتدنا عليها وعرفنا كيف نقاومها. كنا نحن العرب في مقدمة الذين ثاروا على الشاه ونظامه. إضراب عمال منشآت النفط في عبادان كان العامل الحاسم في سقوطه. نحن العمال العرب الذين أضربنا. كنا أقوى من ساهم في الثورة. واليوم تحاول الثورة أن تقتلنا. أعرني سمعك».

استهواني هذا الشاب الطارىء. قلت له: سأعيرك سمعي وقلمي اذا اتفقنا أن لا نغرق في متاهات الأوصاف والنعوت «النضالية». فحتى لا أتفلسف أنا في شؤون عربستان والثورة الايرانية كما اتفلسف في أمور

الخليج الأخرى، أرجوك أن لا تتفلسف أنت في عرضك لما يجري ولنبق في حدود الرواية الحقيقية. ماذا يجري ولماذا وكيف والى أين؟ لنفصل الواقع عن التمني والخبر عن التحليل. موافق؟

قال: موافق.

قلت له: إذن فلنتحدث بصوت عال معاً.

وبدأ حوار ونقاش ساعات طوال. وكانت بداية القصة.

■ ■ ■

عربستان وطن عربي ضاع مرتين. المرة الأولى قبل حوالي سبعين سنة، والمرة الثانية قبل أربع سنوات. وفي المرتين كانت العروبة هي الضحية، وكان الوطن هو الثمن، وكنا نحن العرب، الاداة والضحية والثمن كلهم معاً.

ككل حكايات الأوطان، لا بد لقصة عربستان أن تبدأ من التاريخ. وتاريخ عربستان تاريخ حافل ملون بأسماء غريبة وأبطال وهميين وجغرافيا فريدة وأحداث ضاعت في غياهب النسيان وصراع دولي ما زال يتكرر بأسمائه وحذافيره بعد أكثر من نصف قرن على مسيرته الأولى.

عربستان كانت وطناً عربياً وضاع، بينما ظلت قضايا الأوطان الأخرى الخاسرة أحلام بوطن وسعي لجمع شمل، أملها في تحقيق ذاتها كأمل الشيطان بالجنة. وعند هذا الادراك تزداد الحرقة بالخسارة ويُعمق الجرح بالفرص الهاربة. لذلك فقصة عربستان حكاية جميلة تروى، لأن أحداثها ما زالت تتوالى على مسرح الاستراتيجية الدولية، والصراع حولها ما زال مستمراً فصولا.

أما كيف ضاع هذا الوطن مرتين، فيجب أن نبدأ حكاية التاريخ من أولها.

تبدأ التطورات السياسية العامة لعربستان بمجيء بني كعب من الداخل الى ضفاف الخليج الشمالية في عربستان، فكانوا النواة التي التف حولها التشكيل العربي الحديث في المنطقة والذي أخذ ينمو الى

دولة. انطلق بنو كعب خلالها من قيود بيئتهم ومضوا يشقون طريقهم الى البحر الذي ظلوا يستمدون مقوماتهم منه، وفوق امواجه لقوا عظمتهم. لكنهم لم يغفلوا الاهتمام بما كان يجري في البر، إلا أنه كان اهتماماً مقصوراً على حماية ظهرهم لا الرغبة في التوسع، حتى اذا ما جاء الوقت الذي أحست فيه عربستان أن طريق البحر قد سدته المنافسة الدولية أمامها، اكتفت بالبر لتنمي قوتها وتصنع عظمتها.

فقامت أسرة آل مرداو ـ وآخر أمرائهم الشيخ خزعل ـ تحمل العبء، باعتبارهم الورثة الطبيعيين لبني كعب في المنطقة، لتقبض على زمام الحكم. والجدير بالذكر أنه لم تقم في عربستان وحدة سياسية واسعة تضم الوحدات السياسية الصغيرة المجاورة. ولعل ذلك يرجع الى أن بني كعب قد حملوا الى بيئتهم الجديدة ما تعودوه من تنازع وتنافر، الى جانب تغلغل النفوذ الأجنبي في المنطقة ـ لا سيما النفوذ البريطاني ـ الذي كان من أهم أهدافه الحيلولة دون تكوين وحدة سياسية كبيرة للبلدان العربية في الخليج العربي. بالاضافة الى مراحل النزاع الفارسي ـ العثماني على عربستان، الذي احتدم على طول الحدود السياسية فشجع الأطراف المتنازعة على البحث عن الأصول التاريخية للمشكلة.

وكانت صلات عربستان ولا سيما مع الكويت ونجد والعراق، صلات مباشرة بعيدة عن التعقيد السياسي الذي عليه دول العرب اليوم. فقد اتسمت تلك العلاقات بالانفتاح التام والتعاون الوثيق، فلا حواجز ولا قيود. كان العرب يتنقلون في المنطقة دون ما عائق يمنعهم. وقد قام الشيخ خزعل بمجهود سياسي فاعتبر بارعاً في علاقاته. إذ كان رفيقاً ملازماً لأمراء الكويت، وسنداً كبيراً للسيد طالب النقيب، ووسيطاً كريماً للأمير ابن سعود. وكان من البارزين في الميدان إبان الاحتلال البريطاني للعراق، فوضع طاقاته بكاملها تحت تصرف المحتلين ووهبهم ثقته طمعاً في مساندتهم إياه. ولكن خاب ظنه عندما أعاقوا ترشيحه لعرش العراق، فكانت تجربة قاسية أفهمته أن الديبلوماسية البريطانية تسعى وراء مطامعها. ولكنه لم يأخذ منها درساً.

أما النفوذ الأجنبي في عربستان، فقد تطور ببداية التوسع الأوروبي في حوض الخليج العربي، إذ شهد الخليج ضغوطاً أوروبية متسلسلة ربطت ما بين القرن السادس عشر وأوائل القرن العشرين. فغدا عنصراً هاماً من عناصر السياسة الدولية، مما دفع طلاب الثروة الى انشاء مراكز تجارية ومستعمرات لهم. فكانت أولاً منافسة برتغالية ـ هولندية، ثم ترعرعت في أرجائه منافسة بريطانية ـ فرنسية، ثم اعقبها تخوف بريطاني من امتداد النفوذ الروسي الى الخليج، وقد غدت فارس خلاله ميداناً رئيسياً لذلك الصراع الذي اخذ ينمو ويتفرع.

ولما كانت عربستان تحتل موقعاً كاملاً على فم الخليج، فقد تحولت الى مركز سياسي واقتصادي مهم في الشرق الأوسط، وأصبحت من المواضيع المهمة في العلاقات الدولية. لذلك شهدت تحديات أجنبية متعددة الجوانب استطاع الوجود العربي خلالها أن يصمد أمامها، فظل الخليج عربياً واعتصمت العروبة في أقطاره متخذة معاقلها على سواحله. وكانت عربستان تشكل عالماً مهماً يعد من المعالم الحضارية العربية البارزة في حياة شعوب الخليج.

لقد جذب نهر كارون انتباه رجال الدبلوماسية البريطانية وكبار رجال الشركات. ولما تفجر النفط فيها زاد تشبث بريطانيا بوجودها على شواطئها، إذ أسبغ النفط عليها أهمية جديدة. ولا شك أن المكانة الممتازة، التي تبوأتها بريطانيا في المنطقة، أصبحت على ما يبدو تشكل خطراً في المستقبل على عروبة عربستان. إلا أنه ظهر بعدئذ أن الخطر الحقيقي والمباشر آتٍ من الشمال حيث القومية الايرانية الحديثة المعادية للعرب.

ولأن فارس كانت تجاور عربستان، فقد مارست أنواعاً من الضغوط عليها، وحشدت طاقاتها للسيطرة على ربوعها منذ أن كانت مفككة عاجزة في ظل حكم القاجاريين وحتى أنجبت باعث قوميتها رضا خان. فاندفع يتشبث بالوجود الفارسي على شواطىء الخليج. فنشب النزاع التاريخي الحاد مع الشيخ خزعل الذي كان من نتائجه تقويض الحكم العربي في عربستان تمهيداً لنشأة النفوذ الفارسي واستقراره فيها حتى اليوم.

إن وجود العرب في منطقة حوض.. نهر دُجيل ـ الذي يسميه الفرس نهـر كارون ـ.. يعـود الى زمن سحيق. والعرب الى يومنا هذا يكونون الأغلبية الساحقة في المنطقة. فالحقيقة الكبرى هي أن عربستان وطن عربي، وعروبتها لم تكن وليدة ظرف تاريخي معين، بل هي أمر يرجع في أصوله الى جذور الماضي والى طبيعة الاقليم.

لقـد تعـرض جنـوب غربي آسيـا ـ بمـا فيه عربستان ـ للسيطرة العثمـانيـة منـذ القـرن السـادس عشر، وقد نازعتها السيادة الدولة الفارسية. كما أن الزحف الأوروبي بدأ يستهدف المنطقة فأثر ذلك تأثيراً عامـاً عليهـا، الأمر الذي عرضها للتدهور الاجتماعي والسياسي فترة ليست بالقصيرة. إلا أن القرن التاسع عشر شهد بوادر نهضة في المنطقة أدت الى وضوح فكرة القومية العربية، التي سرعان ما اصطدمت بفكرتين أخريين.

الأولى: فكـرة الجـامعة الاسلامية، التي عدت عربستان جزءاً من الامبراطورية العثمانية.

والثانية: فكرة القومية الايرانية الحديثة التي تغلبت على الفكرة الأولى فقضت على الحكم العربي في عربستان.

إن النزاع العثماني ـ الفارسي على المنطقة، يمثل في الواقع التصادم بين الفكـرتـين. وكـان التيـار الثـاني أقوى من الأول، إذ كان موقف العثمانيين رخواً، في حين كان موقف الفرس صلباً. وبالرغم من ذلك، فإن الإمارة بقيت عربية لا تقر بشيء مما وقع. كما أن فارس نفسها أبقت الاستقلال الذاتي لها، واعترفت بإمارة الحاج جابر بن مرداو وأولاده من بعده.

بعد الاحتلال العثماني لعربستان، تدخلت فارس في الأمر خوفاً من تطويقها بالقوات العثمانية من الجنوب والغرب، فبادرت بالاحتجاج أولاً، ثم باحتـلال عربستـان (١٨٤٠ ـ ١٨٤٢)، ممـا دفع كلا من الدولة العثمانية وفارس الى اجراء مباحثات جديدة. وكانتا قد أعياهما النزاع الطويل لا سيما أن انكلترا، الطامعة بأملاك الدولة العثمانية، وروسيا التي تقف بجـانب الفرس، قد تدخلتا في الأمر، وضغطتا على الدولتين

المتنازعتين لقبول وساطتيهما لحسم ما بينهما من خلاف بلغ حداً خطيراً سنة ١٨٤٢.

وأخيراً لما وجدت أطراف النزاع أن مشكلات الحدود ستحتاج الى وقت طويل، فضلت عقد معاهدة تنص على حل بعض المشكلات القائمة وأن يترك البعض الآخر للدراسة. فكانت معاهدة «أرضروم» الثانية في ٣١ أيار/ مايو ١٨٤٧ أيام السلطان العثماني عبد المجيد والشاه الفارسي محمد.

ويظهر ان النزعات المذهبية قد ساهمت مساهمة فعالة في عقد المعاهدة بين طهران (حامية المذهب الشيعي) واستنبول (حامية المذهب السني) فألحقت عربستان ـ وهي منطقة شيعية ـ بفارس، في حين ضمت السليمانية وما جاورها وهي ـ منطقة سنية ـ الى الدولة العثمانية، في وقت كان فيه العامل المذهبي يسيطر سيطرة كاملة على العلاقات الفارسية ـ العثمانية.

ومن مظاهر تلك النزعات أن شاه ايران عند احتلاله العراق أمر بهدم معالم السنة وقبورهم، وأمر بقتل جماعة من علمائهم. أما العثمانيون فكان رد الفعل المذهبي عندهم أقوى وأعنف. فقد شهد العراق مآسي مذهبية لا حدود لها مع الفرس، من مظاهرها أن العثمانيين أمروا الفرس بضرورة الدخول في مذهب أهل السنة والجماعة في معاهدة ١٧٤٦ المعقودة بين الدولة العثمانية ونادر شاه، ومن رفض كان نصيبه القتل. ولما كانت عربستان والسليمانية من أشد مناطق الاحتكاك بين الدولة العثمانية وفارس، فلذا جاء التنازل في معاهدة «أرضروم» الثانية كحل عله يساهم في التخفيف من حدة هذا التوتر المذهبي.

■ ■ ■

تقع عربستان الى الجنوب الشرقي من العراق، وبذلك تكوّن نهاية الطرف الشرقي من الهلال الخصيب، الذي يبدأ عند السهول الفلسطينية ماراً ببلاد الشام، وتحتل القسم الشمالي الشرقي من الوطن العربي. وهي تشكل منطقة حاجزة بين آسيا العربية والقسم غير العربي

من قارة آسيا. وقد كانت إحدى الوحدات السياسية الصغيرة التي تحف بشبه الجزيرة العربية، تحدها من الشمال سلسلة جبال كردستان ومن الشرق امتداد جبال البختيارية، وهي جزء من جبال زاغروس، وتكوّن هذه الجبال حدوداً طبيعية. ومن الغرب العراق ـ بلوائيه البصرة والعمارة. ومن الجنوب الساحل الشمالي للخليج العربي.

وتبلغ مساحة عربستان ١٥٩,٦٠٠ ألف كيلومتر مربع. أما عدد سكانها فيقدر بـ ١,٥ مليون عربي قبل الاحتلال الايراني للإمارة عام ١٩٢٥. ويسكنها الآن بجانب العرب حوالي نصف مليون من الايرانيين وفدوا الى المنطقة في نطاق حملة التفريس للإمارة. وينتمي معظم السكان العرب الى بني كعب وبني تميم وبني طرف، مما حدا بفارس تحت حكم الصفويين، أن تطلق على هذا الاقليم اسم «عربستان» ومعناها بلاد العرب. واسم عربستان يطلقه غير العرب على الأرض العربية المجاورة لهم. فأطلق الأتراك اسم عربستان على سورية لا سيما القسم الشمالي منها. ونرى ذلك في التقويم الذي أصدرته الحكومة العثمانية في الآستانة سنة ١٨٥٩: إن اسم الفيلق المرابط في سورية «عربستان أو ردوسي» ـ أي: «جيش عربستان» ـ كما يطلق الايرانيون اليوم اسم «عربستان سعودي» على المملكة العربية السعودية. غير أن العرب كانوا يطلقون على هذا الاقليم اسم الأحواز. فالأحواز اسم عربي وكان اسمها في أيام الفرس خوزستان، ومعناها بلاد الحصون والقلاع.

فالأحواز (وتسمى ايضاً الناصرية) ـ وهي اليوم الأهواز ـ وقد أطلق العرب عليها اسم الأحواز لتمييزها عن اسم إقليم الأحواز الذي يقع الى الشمال الشرقي من المحمرة، وهي مركز إمارة عربستان وتقع على نهر كارون في أواسط عربستان.

أما المحمرة (وهي اليوم خورمشهر) فتقع عند مصب نهر كارون في شط العرب. وهي ميناء تجاري مهم مرتبط بالبصرة ارتباطاً اقتصادياً واجتماعياً وثيقاً، شيدها يوسف بن مرداو عام ١٨١٢ على بقايا مدينة كانت قائمة هناك قبل ستة قرون. واتخذها وأتباعه سكناً لهم وسموها «مُحمرة» وأصبحت عاصمة للإمارة بعد استقلالها.

وعبـادان (وتسمى جزيرة خضر) ـ وتدعى اليوم آبادان ـ من مدن عربستـان التـاريخية المهمة، تقع جنوب المحمرة. وهي ميناء لتصدير النفط، وفيها أكبر مصفاة للنفط في الشرق الأوسط. وهي تتألف من جزيرة مستطيلة الشكل تحيط بها مياه شط العرب من جميع جهاتها. وعبادان مدينة قديمة زارها رحالة كثيرون وكتب عنها مؤرخو العصور الاسلامية، وقد عدّوها ضمن مدن البصرة والعراق الجنوبي.

■ ■ ■

يعد الشخ خزعل من الشخصيات العربية البارزة في تاريخ العرب الحديث، إذ أنه لعب دوراً رئيسياً في أحداث الخليج العربي في الربع الأول من القـرن العشرين، وسـاهم مساهمة فعالة في أحداثه، واحتل مكانة مرموقة بين أمراء الجزيرة العربية. وحرص أمين الريحاني في كتابه «ملوك العـرب» على أن يؤكـد لنـا: «أنه أكبرهم بعد الملك حسين سناً وأسبقهم الى الشهرة، وقرين أعظمهم الى الكرم».

ولد الشيـخ خزعـل سنة ١٨٦٢، وهو كعبي عامري تجري الدماء العربية في عروقه، أمه نورة بنت طلال شيخ قبيلة الباوية، التي تنحدر من ربيعة. وكان قد تزوجها أبوه الحاج جابر بن مرداو زواجاً سياسياً ليكسب بها قبيلة أبيها المنشقة عليه. نشأ الشيخ خزعل في المحمرة وتعلم على أيدي بعض من شيوخ النجف، وتدرب على الفروسية. تولى الإمارة على أثر اغتياله لأخيه الشيخ مزعل سنة ١٨٩٧، ولهذا الاغتيال دلائله. فبـالإضافة الى الدوافع الذاتية التي حدت بالشيخ خزعل الى الإقدام عليـه، كانت هناك دوافع سياسية خفية تعد رئيسية في تلك الأحداث. فالمعـروف عن الشيـخ مزعل أنه كان حذراً من المصالح البريطانية في عربستان، لا سيما الملاحة في نهر كارون، وقد عارض المشروع إلا أنه أخفق في إقنـاع بريطانيا بتركه، فظلت بريطانيا تنظر إليه بعين القلق والريبة. وجاءت الفرصة عندما عرض الشيخ خزعل على بريطانيا ما ينوي الإقدام عليه، وأكد لها التزامه لمصالحها فشجعته على ذلك.

ويقول أمين الريحاني عنه أيضاً: «إنه غني حكيم كريم، يساعد في

بنـاء كنيسـة في بلاده لمنكـوبي الكلدان، ويسـاعد في تأسيس محفل للماسون (...) ويفتح خزانته لراقصة أو مغنية كما يفتحها لأولي البر والإحسان من الطوائف كلها جمعاء (...) إذ ناوأه أحد مشايخ القبائل وهم بالخروج عليه، وكانت له بنت صالحة للنكاح، يزوره السردار أقدس ويشرفه بالمصاهرة فتخمد في الحال جذوة التمرد والعصيان. وهو لا يزال على سنه التي تجاوزت الستين أهلا لمثل هذه المهمات».

لقد انتمى الشيخ خزعل الى المحافل الماسونية وساعد في إنمائها فمنح أوسمة كثيرة، واختير رئيساً فخرياً للمحفل المصري، وكانت له مع يوسف الحـاج اللبناني الذي أسس المحفل الماسوني في المحمرة، ومع الأمير محمد علي الاستاذ الأعظم للمحفل الأكبر الوطني المصري، علاقات وطيدة.

كما كان من المعروف أن الشيخ خزعل شيعي المذهب، له عند علماء الدين في النجف وكربلاء مقام كبير. وكان قصره لا يخلو من وفودهم، كما كانت له مواقف مشرفـة في أعمـال البـر. وهو برغم هذا لم يعرف عنه التعصب المـذهبي الذي كان شديداً أيامه ولم يعادِ أصحاب المذاهب الأخرى. ويُروى أن مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني زاره في المحمرة للحصول على هبة لترميم المسجد الأقصى، فأعطاه تسعة آلاف روبية. ويذكر عن الشيخ خزعل أيضاً أنه كان مفرطاً في الجنس حتى تجاوزت زوجاته الستين أو أكثر.

لما قررت بريطانيا غزو العراق ـ إبان الحرب العالمية الأولى ـ رأت أن تستميل الى جانبها شيوخ الإمارات العربية القائمة على ضفاف الخليج العربي، لتؤمن مواصلاتها عبر الخليج الى الهند. فأصدرت لهم تعهدات في المحافظة على أوضاعهم الراهنة وضمان حريتهم وعقائدهم وإعلانهم شيوخاً مستقلين تحت الحماية البريطانية.

ولما اندلعت الحرب ـ وأصبحت الدولة العثمانية في الجانب المضاد لبـريـطانيا ـ صدرت الأوامر بإرسال قوات بريطانية الى عبادان. وقد أعطيت في حينه مسوغات لتلك الحملة، منها: صيانة النفط في عربستان من أجل الاستهلاك البريطاني. وقد خشيت بريطانيا أن تعمل القوات

العثمانية في منطقة عربستان، وتحرم بريطانيا موارد النفط وبالتالي تقضي على النفوذ البريطاني، فكان لزاماً على الانكليز أن يعملوا كل ما في وسعهم لاستمرار تسيير أعمال شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية، التي كان خط أنابيبها يصل الى جزيرة عبادان الواقعة في رأس الخليج، وكانت آبارها تقع الى الجهة الشرقية الشمالية من عربستان. وقد ضوعف ـ في النصف الأول من سنة ١٩١٤ ـ خط الأنابيب وتوسعت معامل التصفية توسعاً كبيراً.

وما أن أعلنت الدولة العثمانية الحرب في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤، حتى أذيع على الأهالي في منطقة الخليج بلاغ ذكر فيه أن بريطانيا لا تضمر أي عداء للعرب ما داموا يظهرون صداقتهم لها، وأن القوات البريطانية لم تحضر الا لتواجه الاعتداء التركي، وتدافع عن أصدقائها العرب.

وكان الشيخ خزعل ـ في جميع مراحل الاحتلال ـ عوناً للإنكليز في حربهم في المنطقة، متجاهلاً الرأي العام في إمارته، فوضع جميع ممتلكاته وأتباعه بإمرة جيوش الاحتلال، واشترك في القضاء على كل حركة تمرد ضد أصدقائه الإنكليز. وقد قام بذلك لقاء تأكيد بريطاني وجهه له في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤ ممثل بريطانيا في الخليج.

لقد خضعت البصرة للسيطرة العثمانية منذ سنة ١٥٤٦، وكان غرض العثمانيين من فتحها، مقاومة البرتغاليين في الخليج ومياه الهند. وظلت البصرة ولاية عثمانية يحكمها متصرف باسم باشا بغداد حيناً ومستقلا عنه أحياناً كثيرة. وكان ذلك المتصرف لا يستطيع الدفاع عن ولايته وتثبيت حكمه ونشر الأمن دون أن يستمد العون بانتظام من القبائل المحيطة بالبصرة.

وقد حرص والي البصرة دائماً على كسب صداقة شيخ المحمرة، غير أنه لم يكن موفقاً دائماً، لا سيما في عهد الشيخ خزعل، الذي كان له نفوذ عظيم في البصرة، لسكنى قسم غير قليل من أفخاذ عشائر المحيسن على امتداد شواطىء شط العرب الغربية، وكانت له صلات طيبة مع أهلها، إذ ارتبط مع بعض الأسر البصرية برباط المصاهرة لتقوية هذه الصلة،

إضافة الى أملاكه الواسعة التي قدرت بنحو نصف مليون ليرة عثمانية. وكان جميع كبار الملاكين يعتمدون عليه، ويحتمون به وهكذا لعبت عشائر الشيخ خزعل دوراً تقليدياً في حياة الولاية السياسية، وبقيت مصدر إزعاج مستمر لحكامها. أما سلطة الوالي فلم تكد تخرج عن نطاق أسوار المدينة نفسها.

والعلاقة بين الشيخ خزعل وولاية البصرة أساسية في روايتنا لأحداث عربستان. وهي تنقسم الى فترتين متميزتين:

الأولى: قبل إعلان الدستور في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨، وقد امتازت العلاقات بنفوذ كبير للشيخ خزعل في البصرة على الولاة، وتسلّط لا حدود له، وكان يستعين في ذلك في كثير من الأحيان بالسيد طالب النقيب، الذي دخل في صراع مع الأتراك، وقام ببطولات أعطته اسماً اسطورياً في جنوب العراق. فكان مرهوب الجانب، صعب القيادة، وكان يبطش بخصومه دون رحمة، ويحمي أتباعه. وقد جمع بسخائه وبطشه أعواناً كثيرين استغلهم لمصلحته ولمضايقة ولاة البصرة الذين تعاقبوا عليها، فخشي الولاة بأسه، ولبوا طلباته. وقد أفاد الشيخ خزعل من نفوذه كثيراً، وكانت تغلب على علاقته بهم في هذه الفترة المصلحة الشخصية المتمثلة في المنافع المتبادلة.

فللشيخ خزعل في البصرة أملاك واسعة وأتباع كثيرون، والادارة العثمانية أضعف من أن تحمي تلك الممتلكات. فكان لا بد له أن يبحث عن شخصية متنفذة قوية ليستعين بها لحماية مصالحه، فوجد في شخص السيد طالب النقيب ضالته المنشودة. فكسبه إليه وأغدق عليه وشمله بكرمه وخصص له راتباً شهرياً بلغ خمسين ليرة عثمانية ذهباً.

الثانية: وهي التي بدأت بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨، وقد امتازت بتوتر واضح وصراع لم يهدأ بين الشيخ خزعل ومؤيده السيد طالب النقيب، وبين ولاة البصرة الذين تعاقبوا على الحكم في هذه الفترة. وسببه جنوح حزب «الاتحاد والترقي» الحاكم الى السيطرة الفعلية على ولايات الامبراطورية في الخليج، والقضاء على كل نفوذ محلي للعناصر غير التركية من شأنه أن يحد من سلطة الولاة في ولاياتهم. ولما كان نفوذ

الشيخ خزعل والسيد طالب النقيب في البصرة كبيراً، فمن الطبيعي أن يدور رحى صراع لا يمكن أن يخمد أواره مع سلطة الوالي العثماني.

ومما زاد في توتر العلاقات في هذه الفترة، أن السيد طالب النقيب تقلد زعامة المعارضة للاتحاديين في العراق بعد ثورة ١٠ تموز/ يوليو ١٩٠٨ (وكان قد أيدها باديء الأمر باعتباره عضواً في «الاتحاد والترقي») وأخذ على عاتقه مناهضتهم والعمل على طردهم من ولاية البصرة وبالتالي المطالبة باستقلالها. فقد كان يُمني نفسه بإمارة عربية تشمل البصرة وما جاورها على غرار إمارة الشيخ خزعل في عربستان.

وكانت علاقة الشيخ خزعل معه قد تبلورت بعد ذلك، ولم تبق مجرد أطماع شخصية، بل تعدتها الى الصلات القومية والأماني العربية التي أخذ أمراء العرب في تلك الربوع يفكرون بها، بعد سياسة التتريك التي ضاقوا بها ذرعاً، وعملوا متحدين للتخلص من كابوسها. وقد شهدت كل من البصرة والمحمرة والكويت اجتماعات متوالية بين أمير المحمرة الشيخ خزعل (وتعد إمارته امتداداً طبيعياً للبصرة) وأمير الكويت الشيخ مبارك (وهو رسمياً قائمقام للبصرة) وزعيم البصرة السيد طالب النقيب (المطالب بحكمها الذاتي) وغيرهم.

ومما يلفت النظر آنئذ أن حركة القومية العربية في المنطقة كانت تسير بقوة ونشاط، وأن الاتحاديين كانوا أعجز من مقاومة تأججها في النفوس والقضاء على نفوذ أصحابها، لا سيما أن السيد طالب النقيب قد أسس في ١٦ آب/ أغسطس ١٩١١ حزب «الحرية والائتلاف» لمناوأة الاتحاديين، يعضده فيه كل من الشيخ خزعل والشيخ مبارك. وقد انتخب السيد طالب عضواً في مجلس المبعوثان في الآستانة سنة ١٩١١. وبعد حل حزب «الحرية والائتلاف» أسس في ٢٨ شباط/ فبراير سنة ١٩١٣ «جمعية البصرة الإصلاحية»، التي طالبت بالحكم الذاتي، وروجت فكرة الإصلاح اللامركزي، وذلك بتأليف مجالس محلية للولايات العربية ـ ومنها البصرة ـ لتعالج مشاكلها وشؤونها بنفسها.

ومن أهم ما تمخضت عنه هذه الحركة في تلك المنطقة العربية هو اجتماع مؤتمر الفيلية الذي عقد في آذار/ مارس سنة ١٩١٣ بين زعماء

شمال الخليج العربي الثلاثة ـ خزعل ومبارك وطالب ـ للتخطيط في مستقبل السياسة العربية في المنطقة بعد أن تردت العلاقات العربية ـ التركية وأنذرت بانفجار شديد. وقرر المؤتمرون الاتفاق على التحالف فيما بينهم وتنسيق سياستهم.

ويمكن اعتبار تلك الاجتماعات، برغم أنها لم تكن لها صبغة رسمية، وهذا الاتفاق العربي، محاولة أولى من نوعها للتجمع على أساس لا مركزي تقع في تاريخ العرب الحديث. فلو قُدِّرَ لهذا الاتحاد العربي أن يقف على قدميه لولدت في رأس الخليج العربي إمارة من أغنى دول الوطن العربي بلا منازع، ولما خسر العرب بعدها عربستان. وقد احيط القوميون العرب ـ في بغداد واستنبول وسورية ومصر ـ علماً بقرارات المؤتمر، وتعرضت الصحافة العثمانية لهذه الاجتماعات، واتهمت المؤتمرين باضعاف نفوذ الدولة العثمانية في المنطقة.

كذلك تعرضت المنطقة الى مضايقات الاتحاديين، إزاء تلك السياسة القومية التي نهجها زعماء الإمارات فيها، ومناهضتهم لسياسة التتريك. والتزم كل من الشيخ خزعل والشيخ مبارك بسياسة السيد طالب النقيب في درء الخطر الذي أخذ يهدد المنطقة، وقدما له العون المادي والأدبي، كما مده الشيخ خزعل بالسلاح.

ولما كانت الأحوال في ترد مستمر، والعلاقات بين العرب والاتحاديين تزداد نفوراً يوماً بعد آخر، اقتُرِح في منتصف تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩١٣ عقد مؤتمر آخر في الكويت في بداية عام ١٩١٤ للنظر في مستقبل الأمة العربية، وحل مشاكلها الناجمة عن مضايقات الأتراك، وفي امكانية قيام ثورة عربية ضدهم، وإزاحة النير التركي عنهم. وقد وجهت الدعوات الى الشريف حسين، والأمير عبد العزيز آل سعود، والأمير سعود آل رشيد، والشيخ عجيمي السعدون، والشيخ مبارك الصباح، والشيخ خزعل، والسيد طالب النقيب. ولكن لم يكتب لهذا المؤتمر النجاح، فقد وئد في المهد بعد أن اعتذر ابن سعود عن حضوره بحجة عدم استعداده للثورة آنئذ. فتأجل انعقاده.

■ ■ ■

لعبت العلاقات الكويتية ـ العربستانية دوراً أساسياً في حياة عربستان السياسية. والحقيقة أن الاقليمين لم يشهدا صلات أكثر متانة وعلاقات أوثق عرى، مثل التي شهداها أيام حكم الشيخ خزعل والشيخ مبارك.

ويرجع هذا التفاهم الكامل بينهما الى أصول عديدة منها: الرابطة القومية والتفاعلات القبلية ـ من عرف وتقاليد وعادات ـ التي تربط سكان الاقليمين العربيين. ومنها: التشابه المصيري بينهما. فكلا الاقليمين يعملان على الابتعاد عن التدخل العثماني في شؤونهما طمعاً في الاستقلال، ويلحان في طلب الحماية البريطانية درءاً للتعديات الخارجية لا سيما أن الكويت مهددة من الوهابيين في أكثر اوقاتها، والمحمرة مهددة باستمرار من الخطر الفارسي الجاثم على صدرها. كذلك التقاء مصالح الكويت والمحمرة في البصرة ـ حيث الممتلكات الواسعة والكثيرة لكلا الجانبين ـ والتي تحتم على الطرفين الاتفاق فيما بينهما لاتخاذ سياسة موحدة إزاء تجاوزات السلطات العثمانية. بالاضافة الى أواصر الصداقة الوثيقة بين الشيخ خزعل والشيخ مبارك، والتي تمتد جذورها الى الفترة ما بين (١٨٩٢ ـ ١٨٩٥) عندما كانا يلتقيان في الفاو والقصبة ـ في الجهة المقابلة ـ مرسلين من أخويهما، لاستثمار موارد النخيل.

وزادت الصلة بينهما متانة عند اعتلائهما كرسي الحكم، على أثر اغتيالهما أخويهما في أوقات متقاربة، لا سيما أنهما يتشابهان في المزاج. فقد عرف عنهما ولعهما بالترف والمتع والعبث، فكانت الزيارات بينهما لا تنقطع، والمراسلات للتشاور في أمورهما مستمرة. وقد بنى كل منهما للآخر قصراً في بلاده، والتزم كل منهما الآخر في بعض أزماتهما.

وفي إبان الحرب العالمية الأولى، كان هناك عامل مشترك فعال تَحَكَّمَ في العلاقات بين المحمرة والكويت، وهو موقف الأميرين المتشابه في ممالأتهما للإنكليز ومناوأتهما للأتراك. فقد شهدت إمارتهما طغيان النفوذ الإنكليزي، ومرابطة قواته البحرية على سواحلهما. واشترك الشيخ خزعل معهما في قمع حركات القبائل الثائرة في منطقته. واتخذت حكومة الكويت

مخزناً للذخائر والسلاح. لكن لم يُقدَّر للشيخ مبارك أن يرى حصيلته في هذه الحرب، إذ توفي في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩١٥ ليحل بدله ابنه الشيخ جابر. فلم تستمر العلاقات بعدئذ بنفس درجات القوة التي كانت عليها أيام حكم الشيخ مبارك. وامتازت علاقات الحرب وما بعدها بما كانت تمليه عليهما بريطانيا من وجهات النظر. ولم يكن بوسعهما تعدي الحدود التي رسمت لهما.

وكان موقف الشيخ خزعل في حوادث غارات الأخوان على الكويت في حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٠ موقفاً مؤيداً للشيخ سالم، فقد أرسل له خمسمائة بندقية، مع مقدار كبير من العتاد للاستعانة بها في محنته. كما أنه حاول استعمال حظوته عند ابن سعود ـ للتخفيف من حدة التوتر مع الشيخ سالم ـ وكانت تربطه به صلات طيبة وصداقة وطيدة، يرجع عهدها الى الأيام التي كان فيها الشيخ خزعل يتردد على الكويت التي يقيم فيها ابن سعود مع والده ـ ليهيىء لاستعادة حكم عائلته على الرياض.

ثم إن الشيخ خزعل دخل في مفاوضات مستمرة مع السير بيرسي كوكس ـ كبير المقيمين البريطانيين في الخليج ـ لإنهاء الخلاف بين الكويت ونجد. ولكن السير بيرسي كوكس كانت تشغله قضايا ثورة العشرين في العراق، وتصفية آثارها والتمهيد لقيام النظام الملكي، فخول الشيخ خزعل أن يقوم بدور الوسيط بين المتنازعين العربيين. فزار الشيخ خزعل الكويت في ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٢٠ للتداول في أمر صلح الشيخ سالم مع ابن سعود. وتم الاتفاق على إرسال وفد مفاوض. وقد وضع الشيخ خزعل يخته الخاص تحت تصرف الوفد الذي غادر الكويت محملاً بالهدايا في شباط/ فبراير سنة ١٩٢١ إلى البحرين ومنها الى نجد. ولكن قبل ان تنتهي المفاوضات بنتيجة تذكر، نعت الأنباء وفاة الشيخ سالم، فتحولت الأنظار الى الشيخ أحمد ـ الأمير الجديد ـ الذي توصل مع ابن سعود إلى صلح مباشر بين البلدين. وهكذا انتهت الأزمة.

أما علاقات الشيخ أحمد الصباح (١٩٢١ ـ ١٩٥٠) المعروف بميله للإنكليز بالشيخ خزعل فكان يشوبها بعض الحذر، لا سيما في السنة

الأخيرة من تقويض الحكم العربي في عربستان. فلم يلب له طلباً للسلاح ليستعين به على مضايقات رضا خان، واعتذر متذرعاً بوجوب مراجعة الانكليز في الأمر. وكان الشيخ خزعل آنئذ في أمس الحاجة الى مبارك جديد يلتزمه ويسانده في محنته، ولكن الشيخ أحمد يختلف عن جده، ولم يكن يجمعه بالشيخ خزعل سوى اعجابهما بالمدنية الغربية ورجالاتها.

■ ■ ■

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، كانت الفوضى تعم بلاد فارس كلها تقريباً، وكانت روسيا قد أقامت نظاماً شيوعياً للحكم إثر ثورة البلاشفة سنة ١٩١٧، قطعت بموجبه أية صلة لها بالعهد القيصري، وسلكت سياسة جديدة إزاء الدول الأخرى. وكان نصيب فارس من هذه السياسة أن تخلت لها روسيا عن جميع مكاسبها وتنازلت عن امتيازاتها. فاحتل البريطانيون في الحال المناطق التي انسحبت منها القوات الروسية، وتوصل السير بيرسي كوكس في ٩ آب/ اغسطس سنة ١٩١٩ الى عقد معاهدة مع «وثوق الدولة» رئيس الحكومة الفارسية، وضعت فارس بموجبها تحت السيطرة البريطانية التامة في الإدارة والجيش، وأظهر الشاه والحكومة استعدادهما لقبولها.

ولكن الشعور العام المضاد لها جعل المجلس يرفضها ـ على الرغم من الضغوط الانكليزية الشديدة ـ فسقطت وزارة وثوق الدولة، وعجزت الوزارات المتعددة التي تلتها عن قبولها. وكانت بريطانيا قد مهدت لها بعقد قرض لفارس قيمته مليونا جنيه يسدد في عشرين سنة بفائدة ٧٪، وجعلت حصيلة الجمارك ضماناً له.

وقد صادف إبرام هذه المعاهدة قيام حركات وطنية مناوئة للاستعمار شملت معظم شعوب الشرق كمصر وتركيا والهند وبلاد الشام وغيرها، فكان لها التأثير البين على هياج الرأي العام الفارسي ضد المعاهدة. وكانت موسكو قد أخذت ترى في اجتياح بريطانيا المناطق التي انسحبت منها

تهديداً خطيراً لممتلكاتها. فتوغلت قواتها شمالي فارس، وفي كل هذا كانت حكـومة طهران ـ وعلى رأسها الشاه ـ عاجزة عن رسم خطة سياسية واضحة تسير عليها البلاد وتصد عنها التدخل الأجنبي. ولهذه الأسباب قام رضـا خان (رئيس فرقة الحرس القوزاق)، وفي مخيلته خواطر عن ماضي فارس الزاهر، حالماً بأمجاد الأكاسرة الأوَلْ، بانقلاب في الثاني من شباط/ فبراير سنة ١٩٢١ أطاح فيه بالحكومة دون أية مقاومة، وفرض على الشاه حكومة السيد ضياء الدين الطباطبائي ـ وهو من الصحفيين الأحرار. فلم يكن أمام الشاه إلا أن وافق من غير معارضة على تشكيل الحكومة الجديدة.

والواقع أن حركة رضا خان هي جزء من الحركات القومية التي أخذت تجتاح بلدان الشرق بُعَيْدَ انقضاء الحرب العالمية الأولى، على أثر فشل شعـوبهـا في الحصـول على ما كانت تتوقعه من استقلال وحق تقرير المصير. ورضا خان يمثل تيار القومية الفارسية الحديثة التي ظهرت.

وبعد مرور ثلاثة أشهر على الانقلاب دب الخلاف بينه وبين رئيس الوزراء الذي أجبره رضا خان على ترك البلاد في نيسان/ ابريل سنة ١٩٢١، ليرأس الوزراء قوام السلطنة أحد حكام الولايات المعتقلين. وقد بقي رضا خان وزيراً للدفاع في عدة وزارات متتالية حتى عام ١٩٢٣.

وفي هذه الأثنـاء تحسنت العـلاقات بين موسكو وطهران، ذلك لأن السوفيات كانوا مسرورين بتولي رضا خان الحكم، نظراً للاعتقاد السائد بأنه يرأس حركة وطنية ثورية وعلى اعتبار أن انقلابه «حدث تاريخي» يدشن بداية عهد جديد. وخيل اليهم أن الديكتاتورية العسكرية ستكون مرحلة انتقـالية نحو نظام جمهوري قومي. وهكذا تمخضت العلاقات الحسنة عن إبرام معاهدة سنة ١٩٢١ بين الاتحاد السوفياتي وايران، وقد اعترفت تلك المعاهدة باستقلال فارس التام وتنازل عن كل ما لديه من المقـاطعات الفارسية. كما تنازل عن جميع الديون التي كانت له، واشتُرط لتنفيذ أكثر بنود هذه المعاهدة أن يبتعد كل نفوذ أجنبي آخر عن فارس.

والواقع أن رضا خان كان يشبه مصطفى كمال أتاتورك في نواحي متعددة، وكان متأثراً بشخصيته الى حد بعيد، فكانت اقصى أمنية تراوده أن يباريه في أعماله، مما جعله أول ما يفكر بالتآم أجزاء بلاده المتفرقة في وحدة وطنية قبل إقدامه على أية عملية أخرى. وفي سبيل ذلك أفرغ همه لتعزيز الجيش وتزويده بالأسلحة الحديثة التي عقد صفقتها مع فرنسا.

وقد راودته فكرة بعث الامبراطورية الفارسية في كل أرض وطئتها جيوش فارس. فراحت عربستان ضحية الأفكار القومية المتطرفة.

لذا فقد أصر على ضم عربستان الى فارس، ويبدو أن دوافعه في ذلك كانت كثيرة، فإلى جانب وازعه القومي المتطرف كان هناك ازدهار المحمرة وثروتها النفطية. إضافة الى أن ضم عربستان إليه كان سيهيىء له المجال للمطالبة بمزيد من المكاسب الاقليمية. ولذلك نجده بعد حين يطالب بشط العرب لما له من قيمة اقتصادية واستراتيجية خطيرة. كما أن ضم المنطقة اليه معناه تهديد النفوذ البريطاني المسيطر على معظم اقتصاديات فارس في أعظم معقل له، ليستطيع بالتالي أن يملي عليه شروطه.

ولا ننسى شخصية الشيخ خزعل التي انضوت تحت سلطتها قوة العرب في المنطقة، تلك القوة التي تمثل تيار القومية العربية التي تعاديها القومية الفارسية ـ منذ ازدهار الدولة العربية في الاسلام ـ لا سيما أن الشيخ خزعل قد بدأ شأنه في الصعود بعد ترشيحه لعرش العراق، ودخوله في معاهدات مع بريطانيا. فتبوأ بذلك مكانة مرموقة في العلاقات الدولية في المنطقة.

لما شعر الشيخ خزعل بأن رضا خان مصمم على مناهضة حكمه، أخذ يعد العدة للوقوف بوجه ذلك الخطر الداهم. ولما لم يجد أملا في الحصول على مساندة الملك فيصل الأول له، وتلكؤ الشيخ أحمد الجابر في الاستجابة لطلبه بمده بالسلاح، اضطر أن يولي وجهه شطر القبائل العربية المجاورة لإمارته، فاتصل بيوسف خان زعيم البختيارية، وغلام رضا خان والي بشتكوه، وأمير مجاهد خان لرستان وغيرهم، ليشكل معهم «اتحاد حلف السعادة» لمناهضة تعديات رضا خان المحتملة للمنطقة.

وانتخب الشيخ خزعل رئيساً لذلك الحلف الذي جعل مركزه في عربستان. وقد استطاع المتحالفون أن يحصلوا على شرعية حزبهم من الشاه أحمد قاجار المنفي في باريس. إلا أن ذلك قد زاد رضا خان تصميماً لاختراقه المقاومة الجديدة والنفاذ الى عربستان.

أمام ذلك كله زحف رضا خان بقواته العسكرية من طهران نحو عربستان عن طريق أصفهان ـ شيراز. ومن هناك بذلت بريطانيا مساعيها لإيقافه. وأوعزت الى قنصلها في شيراز بمقابلته وإبلاغه رسمياً بأن الشيخ خزعل تحت الحماية البريطانية ولا يمكن التعرض له. ولكن رضا خان رفض الموقف البريطاني واعتبره تدخلا في شؤون فارس الداخلية. بينما كان الشيخ خزعل يطمع من الانكليز بالوفاء بتعهداتهم له وتقديم المساعدات العسكرية اللازمة. إلا أن معاونتهم له اقتصرت على العمل السياسي فقط. ولم تشأ الحكومة البريطانية ان تأخذ على عاتقها علناً الدفاع عن الشيخ خزعل ضد فارس لئلا تخسر بقية نفوذها، لا سيما أن لها مع فارس مصالح اقتصادية واسعة النطاق. كما أنها كانت حذرة جداً من الوقوف بوجه رضا خان، كي لا يؤدي تماديها في مضايقته الى ارتمائه في أحضان الاتحاد السوفياتي، في وقت لم تظهر فيه هويته الحقيقية بعد، خاصة وأن السوفيات اظهروا له من نكران الذات والتسامح ـ في عقد معاهدة ١٩٢١ ـ ما قوى نفوذهم في البلاد وقلّص نفوذ الانكليز. ولذلك كان هم بريطانيا الوحيد تطويق زحف رضا خان وعرض وساطتها لحل المعضلة بالطرق السلمية.

إلا أن رضا خان تقدم بجيشه نحو بهبهان ـ من مدن جنوب عربستان ـ وجرت هناك مناوشات بين جنوده وعرب الشيخ خزعل يساعدهم فرسان البختيارية. كما خرجت جيوش أخرى من خرم آباد لتدخل شمال عربستان. وكان موقف الشيخ خزعل من ذلك أن بعث رسله في جميع أرجاء الإمارة يدعو العرب الى الجهاد دفاعاً عن عروبة عربستان. وأعلن الانفصال عن فارس نهائياً. واتجه الى تشكيل فرق عسكرية هي نواة جيش عربستان سميت باسم «شباب حزب السعادة». وقام بسفرات متوالية الى اطراف القبائل ودعاها للثورة بوجه رضا خان

الذي ينوي طرد العرب من أراضيهم وإحلال الفرس بدلهم وسلب ثروة الإمارة ومصادرة أموال العرب.

كما أرسل الرسل الى العلماء في فارس والعراق، يوضح نوايا رضا خان في اذلال العرب ومحوهم من الوجود. وقدم شكوى رفعها عن أكثر من خمسة عشر الف عربي الى عصبة الأمم يدعوها للوقوف بوجه رئيس وزراء فارس المعتدي على امارته. كما عمل على الاتصال بالعناصر المعادية لسياسة رضا خان في طهران للوقوف بوجه تعدياته. وقدم طلباً الى بريطانيا يدعوها الى الوفاء بتعهداتها له. غير ان الشيخ خزعل وجد انه من المستحسن عدم مقاومة جيش نظامي مدرب بأسلحة حديثة بعشائر غير نظامية.

فلما أوفد رضا خان ـ وهو على حدود الإمارة ـ رسولا يدعو الشيخ خزعل للحضور الى مركز قيادته، اعتذر الشيخ بأن صحته وشيخوخته لا تسمحان له بالقدوم. وذهب نجله الشيخ عبد الكريم ليتفاهم معه في أمر الإمارة وليرافقه عند دخوله حاضرة البلاد. وقد أرسل الشيخ خزعل لرضا خان رسالة مطولة شرح فيها الأسباب التي دعته الى الثورة ملقياً اللوم فيما قام به على المحرضين والمشاغبين، متعهداً بخضوعه مقابل تركه حاكماً على امارة عربستان من قبل الحكومة الفارسية.

ولكن رضا خان أبى إلا أن يدخل امارة المحمرة فاتحاً، فظل يزحف بجيوشه يحتل القرية بعد الأخرى. وأمام ذلك لم يجد الشيخ خزعل بداً من التسليم، ولم يبد أية مقاومة تذكر. فدخل رضا خان الاحواز (الناصرية) الحاضرة الثانية لعربستان، واتخذ من قصر الشيخ خزعل فيها مقراً لقيادته. ومكث يومين فقابل في اليوم الأول الشيخ خزعل، الذي أظهر له رضا خان اعتزازه بصداقته وحرصه على سلامته وحفظه لمنصبه ومقامه. ومقابل ذلك اهداه الشيخ خزعل مبلغاً كبيراً من الجنيهات الإنكليزية. ولكن العرب في المنطقة ـ الذين كانوا في حماس شديد في سبيل نيل الاستقلال التام ـ ثاروا على موقف الشيخ خزعل الذي أظهر لحاكم فارس الجديد الشيء الكثير من الخنوع والخضوع.

وقد توجه رضا خان بعدئذ الى المحمرة، واستقبله الشيخ خزعل في

قصر الفيلية. ثم طاف في معظم أرجاء الامارة. وقبل أن يغادر عربستان أمر بتشكيل حكومة عسكرية برئاسة الجنرال فضل الله خان زاهدي على اعتبار أن المنطقة قد احتلت احتلالا عسكرياً مؤقتاً لأغراض وطنية، ووضعت تحت امرته ثلة من القوات العسكرية لتمشية أعماله. وقد أعلنت الأحكام العرفية في جميع انحاء عربستان. وشكلت محكمة خاصة باسم «محكمة الصحراء» من العسكريين لتستجوب المتهمين وتنفذ الحكم في الحال. وبعد ذلك غادر رضا خان عربستان متوجهاً الى العراق في زيارة خاصة للعتبات المقدسة، بعد أن طلب من جميع موظفيه ـ الذين حلوا في عربستان ـ احترام الشيخ خزعل.

وبينما كان الشيخ خزعل في البصرة أعلن الجنرال زاهدي الانسحاب من المنطقة، مغادراً الأحواز الى المحمرة. فعاد الشيخ خزعل الى المحمرة بيخته «الخزعلي» الخاص ليقابل المعتمد السياسي البريطاني في الأحواز، للوقوف على صحة ما أدلى به زاهدي. وقد أكد المعتمد البريطاني له صحة النبأ. وطلب الجنرال زاهدي إقامة حفلة ساهرة لوداعه، فلبى الشيخ خزعل الطلب، وأوعز الى ابنه عبد الحميد بالحضور من البصرة ليهيىء لتلك الحفلة كل ما لذ وطاب والتي عدها حفلة النصر. فأقامها في يخته الخاص الراسي في شط العرب مقابل قصر الفيلية، لكي لا يشيع خبرها. ولم يدع اليها سوى أبنائه: عبد الحميد وعبد الله وعبد المجيد، وأحد أقاربه، وسكرتيره الخاص، وذلك احتراماً لقدسية ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ـ التي أقيمت فيها الحفلة ـ أمام الأهالي.

وبعد غروب الشمس قدم الشيخ خزعل يحرسه نفران من غلمانه. وما أن عرضت بعض الرقصات واستمعوا الى جانب من الغناء حتى صعدت ثلة من الجيش الفارسي الى الباخرة، فقطعت على الشيخ خزعل نشوته. وتقدم إليه أحد الضباط الفرس المسلحين ليلقي القبض عليه وعلى إبنه عبد الحميد اللذين سيقا من الفيلية الى المحمرة، ومنها الى الأحواز في الليلة نفسها. وفي اليوم التالي ارسلا الى طهران على البغال. ولم يتعرض الجند لغيرهما بسوء. وزالت إمارة آل مرداو من عربستان في ٢٠ نيسان/ ابريل سنة ١٩٢٥.

كان موقف بريطانيا من ذلك الحدث ما عبر عنه وزير الخارجية اللورد بلفور بمجلس اللوردات في ١٩ آذار/ مارس سنة ١٩٢٥: «أن الشيخ خزعل لم تعتبره بريطانيا يوماً ما حاكماً مستقلاً، بل كان في نظرها على الدوام خاضعاً للسيادة الفارسية».

واحتجز الشيخ خزعل في أحد قصور طهران، ولاقى خلال سجنه من الحكومة الفارسية احتراماً وإكراماً، حتى أن رضا خان زاره هناك أكثر من مرة. وخلفه في منصب الامارة ابنه الشيخ عبد الله، الذي منحه رضا خان رتبة في الجيش لكسبه إليه. وفي أثناء حكمه حدثت ثورة الغلمان (حراس الشيخ خزعل) كرد فعل لأسر شيخهم، وذلك بعد مرور أقل من ستة أشهر على اعتقاله. إلا أن السلطات الايرانية قضت عليها بشيء من الشدة وحوكم عدد كبير منهم. وقد غرم نتيجتها الشيخ خزعل مبلغ خمسة ملايين تومان (ما يعادل مليونا ونصف مليون جنيه استرليني)، دفعه الشيخ خزعل نقداً وهو في معتقله. وبعد ثلاث سنوات نقل الشيخ عبد الله الى طهران ولم يعين من يخلفه، سوى أن الشيخ عبد المجيد ـ ابنه الآخر ـ أصبح رئيساً لقبيلة المحيسن.

أما الشيخ خزعل فقد توفي في ٢٦ آذار/ مارس سنة ١٩٣٦ في طهران محاطاً بكل مظاهر الشرف، في الوقت ذاته محروماً من حقوقه كأمير مستقل، بعد أن ضمت أراضيه الى الامبراطورية الفارسية.

لقد مر احتلال فارس لعربستان دون أية مقاومة عربية خارجية، أو حتى أي احتجاج. ومضت ايران في خطواتها لتفريس المنطقة، فأحدث ذلك ردود فعل عند ابنائها للقيام بثورات غير منظمة ومتفرقة ومتباعدة. كتلك التي قامت بها عشيرة كعب الدبيس سنة ١٩٤٠، وثورة الفجرية سنة ١٩٤٣ التي تزعمهما الشيخ جاسب خزعل، وحركة الشيخ عبد الله بن الشيخ خزعل سنة ١٩٤٤ التي وئدت في المهد، وثورة بني طرف سنة ١٩٤٥ التي كان من نتائجها أن أجبروا على ترك مناطقهم الى شمال ايران، كما قام في سنة ١٩٤٦ «حزب السعادة» للمطالبة بحقوق العرب في المنطقة. وفي عام ١٩٥٦ شكلت حركة قومية سياسية ثورية في المنطقة أطلق عليها اسم «جبهة تحرير عربستان» لتنظيم عرب الأقليم سياسياً وثورياً.

والواقع ان رضا خان قد خدمته الظروف في المنطقة العربية. فجزيرة العرب كان أمراؤها في شغل عن أحداث عربستان ترهقهم الحروب، وقد اشتبك الهاشميون والسعوديون في صراع عنيف من أجل السلطة. وكانت بريطانيا تسيطر على معظم العلاقات بين حكام تلك المناطق. فلا تسمح باتصال بعضهم ببعض إلا بموافقة المعتمد السياسي البريطاني. وسورية كانت تخوض ثورتها الوطنية. أما العراق فكان يعيش في أعقاب ثورة العشرين، وقد شرد معظم الوطنيين.

وهادنت حكومة فيصل الأول في العراق الاحتلال الفارسي لعربستان، وتركت المنطقة العربية تبتلعها فارس دون ما اكتراث. ولم يَدُر في خلدها أن هذا الاحتلال كان خطوة أولى للدخول الى مياه شط العرب. فقد أصرت السلطات الايرانية على جعل شط العرب بأكمله مشتركاً. ولشدة الإصرار اضطر العراق الى رفع القضية الى مجلس عصبة الأمم، في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٣٤. ولكن المجلس أوصى بحل الخلافات عن طريق المفاوضات التي باءت بالإخفاق. فانتهزت ايران ضعف الإدارة السياسية في العراق عند انقلاب بكر صدقي، وانشغالها بالمشاكل الداخلية فجددت مطالبتها بشط العرب، مما اضطر العراق الى منحها حق الاشتراك مناصفة في ملاحة الشط مسافة ٤ أميال أمام عبادان. وأصبح خط الحدود يمر في منتصف النهر مما سهل تهديد العراق في كل لحظة، وجعل مصالحه المتعلقة بالنفط وميناء البصرة في خطر.

وهذا ما أكدته الحرب العراقية ـ الايرانية بعد مرور حوالي سبعين سنة على سقوط الحكم العربي في عربستان. وكان الضياع الأول.

■ ■ ■

كان العرب في عربستان قد بدأوا يستعيدون في الخمسينات طموحهم السياسي تحت تأثير المد الذي أطلقه جمال عبد الناصر إثر سقوط الحكم الملكي في العراق. وفي سنة ١٩٥٨ ظهرت للمرة الأولى «جبهة تحرير عربستان» تطالب بتحرير البلاد من الاحتلال الإيراني. وكان التيار

الناصري في الخمسينات والستينات هو المحرك الأساسي لأمل عربستان في التحرر والاستقلال. وبين سنتي ١٩٦٤ و ١٩٦٥ وقعت عدة حوادث في المنطقة كجزء من الحرب الدائرة في حينه بين ايران الشاه وبين مصر عبد الناصر. وتكررت حركات عربستان منذ ذلك التاريخ وتكررت معها انفجارات مماثلة في سنة ١٩٧٣.

ومع بداية المد الثوري في نهاية عهد الشاه وقفت عربستان في طليعة الصفوف المناهضة لحكمه. ولما وقعت الثورة الايرانية وسقط نظام الشاه واندحرت الأسرة البهلوية وأعلنت الجمهورية الإسلامية، كان عرب عربستان في طليعة المؤيدين لها لسببين أساسيين:

الأول: أنها قضت على نظام الشاه وأسرته مضطهدي العرب الحقيقيين.

الثاني: أنها أفسحت في المجال للعرب والأقليات القومية الأخرى، وللمرة الأولى ومن ضمن مفهومها الاسلامي، امكانية منحهم حقوقاً متساوية مع الفرص وإعادة الاعتبار القومي لهم.

وكانت المطالبة الكردية هي الأولى واصطدمت بالسلطة في طهران. وكانت المطالبة التركمانية هي الثانية، واصطدمت أيضاً بالسلطة الايرانية المركزية. وجاءت المطالبة العربية لتكون الثالثة ولتغرق في بحر الدم في أعنف اصطدامات مع عسكر الثورة وحرسها. وكان هو الانفجار الذي فتح ملف الثورة الايرانية كله وعلاقاتها مع عرب عربستان ومع عرب الخليج والمشرق. وجاء التوقيت عندما أرادت حكومة مهدي بازركان المؤقتة أن تسحب السلاح من العرب في ميناء خورمشهر (المحمرة) في اللحظة التي عاد فيها ممثل العربستانيين الشيخ محمد الخاقاني من قُم دون أن يقابل آية الله الخميني ودون تحقيق المطالب التي وعدت بها الثورة الايرانية.

لكن لنحدد، وبوضوح تام، ما هي المطالب العربية، حسب ورقة العمل التي قدمتها «جبهة الشعب العربي الايراني المسلم» الى رئيس الحكومة الايرانية وقتئذ الدكتور مهدي بازركان وبموافقة الشيخ محمد الخاقاني رئيس الجبهة. فالمطالب هي كالتالي:

١ـ الاعتراف بالقومية العربية في ايران على أن يدرج ذلك في الدستور الايراني الجديد.

٢ـ تشكيل مجلس محلي لخوزستان (عربستان) كأساس للحكم الذاتي في المنطقة ليقوم بتشريع القوانين المحلية اللازمة في المجالات الداخلية.

٣ـ تشكيل محاكم عربية لحل مشاكل المواطنين العرب وفقاً للقوانين في الجمهورية الاسلامية.

٤ـ اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في منطقة الحكم الذاتي، علماً بأن الفارسية هي اللغة الرسمية في عموم ايران.

٥ـ الزامية تدريس اللغة العربية في جميع المدارس الابتدائية في منطقة الحكم الذاتي.

٦ـ إقامة جامعة عربية في منطقة الحكم الذاتي تسد حاجات الشعب العربي الايراني في خوزستان (عربستان).

٧ـ أولوية التوظيف في منطقة الحكم الذاتي لأبنائها العرب ومواليدها وبنفس شروط توظيف الايرانيين من أبناء القومية الفارسية.

٨ـ ضمان حرية النشر والإعلام والصحف باللغة العربية في خوزستان (عربستان).

٩ـ تخصيص قسم من موارد النفط الذي ينتج أصلاً في خوزستان (عربستان) لإعمار المنطقة.

١٠ـ تغيير أسماء المدن والقرى والأحياء الفارسية وإعادة الأسماء التاريخية العربية.

١١ـ إدخال المواطنين العرب الايرانيين من منطقة الحكم الذاتي وإشراكهم في القوات المسلحة الايرانية وسلك الشرطة المحلية.

١٢ـ إعادة النظر في قوانين توزيع الأراضي على الفلاحين من ضمن القوانين الاسلامية المتعارف عليها.

وتصدت السلطات الايرانية للمطالب العربية بعنف، لحساسية الوضع الجغرافي لعربستان، في كونها مركز انتاج وتصدير النفط الايراني. والعمال العرب لا يشكلون أكثر من ٢٠ بالمئة من عمال النفط،

لأن السياسة الايرانية كانت وما زالت ضد توظيف العرب. فالبَوْن شاسع بين العمال العرب والعمال الفرس المهاجرين من الشمال. شاسع في الرواتب والرتب. بيوت العرب مجموع أعشاش وبيوت الفرس «قصور» بالمقارنة. رواتب الفرس خمسة أضعاف رواتب العرب، وليس هناك عربي واحد في مركز تنفيذي.

وأمام هذا الوضع المتردي في عربستان ومواجهة العنف بين طهران والمحمرة، لم يعد من الممكن أن تبقى قضية الشعب العربي في إيران اسيرة التعتيم الايراني ولا ضحية الظلم التاريخي الذي لا آذان ولا عيون له، كان لا بد من الانفجار.

اما وقد تم الانفجار واستعرت نار الحرب العراقية ـ الايرانية لزمن طويل، فإنه لا بد من وجود تصورات مستقبلية للأهداف العراقية ـ العربية بعد أن وضعت، كما يبدو، هذه الحرب أوزارها.

لسنا نريد ان نستبق الاستراتيجية العراقية حول أية طاولة مفاوضات مقبلة. ولكننا نريد أن يكون أحد المطالب الأساسية للعراق هو حق تقرير المصير لشعب عربستان العربي من ضمن معطياته ومقوماته القومية واللغوية والدينية، وليس من خلال إطار حكم ذاتي يرتبط مصيره بمصير نظام الخميني في طهران.

كذلك يجب ألا نخشى البديل في عربستان. وهو «بنغلاديش» جديدة وغنية. والمقارنة واردة بين بنغلاديش الهندية، وعربستان العربية. فمثلما سمحت الظروف الدولية واللعبة الاستراتيجية بقيام الهند في حربها مع باكستان سنة ١٩٧٢ بانتزاع باكستان الشرقية من الحكم العسكري في باكستان وخلق دولة مستقلة من البنغاليين في الجنوب الشرقي من شبه القارة الهندية، يجب أن تسمح الظروف الدولية اليوم، وأصول اللعبة الاستراتيجية، بقيام العراق في حربها مع ايران بانتزاع عربستان من الحكم الديني المتعصب في طهران وخلق دولة مستقلة من العرب في الشمال الشرقي من الخليج. لكن من المؤسف أن العراق قد أضاع هذه الفرصة عند بداية حربه مع ايران، حين فشل في أن يلعب الورقة العربستانية ويستخدمها بذكاء. فضاعت عربستان مرة ثانية.

ولأن هذه الدولة الجديدة غنية بالنفط فيجب ان يكون مبرر قيامها أكبر حظاً. فهي مؤهلة أكثر من عدد من دول النفط الصغيرة المحيطة بها. مؤهلة للحياة شعباً واقتصاداً وتكويناً جغرافياً وامتداداً. واذا كان انفصال عربستان يعني تجويع إيران من النفط، فإنه لا يعني تجويع العالم الذي يشتري النفط الايراني. فالنفط الايراني الذي تنتجه الأرض العربية سيستمر بيعه لنفس زبائن اليوم. إنما ستعود عائداته الى دولة جديدة ذات شعب قديم. وإذا افترضنا أن هذا الاحتمال وارد فيجب أن لا تتردد أي دولة عربية في الاعتراف بالأوضاع الجديدة في عربستان. فالعرب الذين قبلوا الصومال وجيبوتي في جامعتهم يجب ألا يترددوا في الاعتراف بأحفاد بني كعب وتميم.

■ ■ ■

إن بلقنه ايران وعودة بلاد فارس الى حجمها الجغرافي الحقيقي ليس همّاً عربياً. ومن سيرث آيات الله في طهران والثورة الاسلامية، ليس مشكلة عربية إلّا بقدر ما سينعكس هذا التغيير على العلاقات العربية ـ الفارسية لما بعد الحرب. المشكلة هي أن لا تتيح هذه الحرب للعبة الاستراتيجية الدولية أن تسرق رفضنا لعودة تاريخنا الى الوراء.

لقد أضاع العرب دولة عربية افريقية اسمها زنجبار سنة ١٩٦٤، لان جمال عبد الناصر اختار في حينه وفضّل جوليوس نيريري وتنغانيكا والمحالفة الأفريقية في عصر عدم الانحياز، على جزيرة عربية كان يحكمها سلطان شاب اسمه جمشيد البوسعيدي العماني، لأنه في عُرف ذلك الزمان كان رجعياً. ومات ١٠٠ الف عربي مسلم ذبحاً في ثلاثة أيام على أيدي الحزب الثوري الأفرو ـ شيرازي. وظلت تنزانيا ـ كما أصبحت بعد اتحادها مع زنجبار ـ حليفة لإسرائيل وأكثر الدول عداء للعرب والمسلمين. ولا نريد للتاريخ أن يعيد نفسه اليوم.

الفصل الثالث

إيران: الخوف من المصاحف والسيوف

«الفرس قادمون».

صيحة بدأت تُسمع في الخليج منذ سنة ١٩٧٠. قد تسمعها همساً، أو قد لا تسمعها إطلاقاً بعض الأحيان، أو ربما تسمعها بصوت عالٍ في أماكن كثيرة ومن أناس موزعي الآراء والأهواء والمشارب. إلّا أنها صيحةً أصبحت مسموعة في كل مكان في الخليج. من صلالة جنوباً إلى الكويت شمالاً. قبل الحرب العراقية الإيرانية كانت «الفرس قادمون»، بعدها صارت «الفرس وصلوا».

ولكن لماذا وكيف ومتى؟

أسئلة كثيرة تتزاحم على امتداد رمال الصحراء كلما تراكمت الأحداث في الخليج وكلما تفاعلت التطورات التي أخذت تعصف في هذه المنطقة في شكل لم تعرفه منذ استقلالها في أواخر ١٩٧١.

قرابة أربع عشرة سنة مرّت على كيانات الخليج العربي الجديد، وفي هذه السنوات، زالت مظلة الحماية البريطانية، وتغيّرت ظروف العالم العربي، وتبدّلت مقاييس التعامل بين الدول، وانقلبت التحالفات الدولية، وتغيّر منطق الاستراتيجية العسكرية. أمور كثيرة لم يعرفها الخليج العربي في السنوات التي سبقت الاستقلال، ولم يسبق له أن تعامل مع معطياتها الجديدة. لقد أصبح الخليج العربي اليوم، مع كل التغيير الذي حصل في المنطقة العربية، البوابة الأمامية للعالم العربي بعدما قبع سنوات وسنوات كبوابة خلفية مهملة تغفو على أهم سلاح، وأهم موقع، وأهم مخزون في العالم.

كلام كثير قيل في الفرس وإيران، وفي العلاقات العربية ـ الفارسية. إلّا أن الكلام الحقيقي لا يزال مدفوناً مع رؤوس النعامات العربية في بوادي الأخطار الكثيرة التي تحيط بهذه الأمة من محيطها إلى خليجها.

وقد أصبح خليجها أكثر الأماكن تعرّضاً للخطر، وأقلّها اهتماماً سياسياً قومياً، وإدراكاً استراتيجياً وعسكرياً، وتقييماً اقتصادياً حقيقياً.

لماذا الفرس قادمون؟ بل لماذا وصلوا؟ تلك حكاية تبدأ في التاريخ.

■ ■ ■

منذ أن فتح العرب بلاد فارس في فجر الدعوة الإسلامية، وهي الفترة التي أغار فيها والي البحرين العلاء الحضرمي على فارس وتوغل فيها حتى وصل إلى «اصطخر» سنة ٦٣٨، ظلّت العلاقات العربية ـ الفارسية طيبة وطبيعية، حتى تمكّن الأوروبيون من إثارة الشقاق بين المسلمين على جانبي الخليج العربي. أما قبل نجاح الأوروبيين في هذا الصدد، فقد كان أهل ضفاف الخليج يتنقلون بحراً وبراً بين مختلف أرجائه من دون أن يعتبر ذلك غزواً ولا احتلالاً. وكثيراً ما كان الدافع إلى الغزو هو القضاء على القوات الأجنبية التي كانت تحتل منطقة ما من الخليج. وكان الغزاة يسيرون في تلك الأحوال بدافع إسلامي. والقوات الخليجية العربية، في المقابل، تقوم بين الفينة والأخرى، بالهجوم على الساحل الفارسي والاشتباك مع الغزاة الأوروبيين الذين كانوا يحاولون التمركز في مواقع على جانبي الخليج على حد سواء.

في نهاية القرن السادس عشر حدث تطوران بارزان أدّيا إلى تدخّل الفرس في الخليج.

الأول: تولّي الشاه عبّاس عرش فارس عام ١٥٨٧، والاتصال الأول الذي تم في عهده مع بريطانيا من خلال بعثة تشيسني عام ١٥٩٨.

والثاني: تأسيس شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠ والتأكيد على المصالح البريطانية في المحيط الهندي.

وقد اتفق الطرفان (الفرس والبريطانيون) على ضرورة القضاء على الوجود البرتغالي في عُمان وطرده من هُرمز. الطرف الأول (الفرس) تأكيداً

لسيادتهم الوطنية وطموحاً إلى التوسّع الإقليمي، والطرف الآخر (البريطانيون) توسيعاً لمصالحهم التجارية وحماية لخطوطهم البحرية. وفي العام ١٦٢٢ اتفق الطرفان واشتركا في هزيمة البرتغاليين وطردهم من هُرمز كمرحلة أولى من الخطة المشتركة. وعندما جاء تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة، وهي احتلال عُمان، رفض البريطانيون الانضمام إلى الفرس في غزو مسقط. غير أن هذا لم يمنع الشاه عبّاس من احتلال خورفكان وصحار على ساحل الباطنة في عُمان وحده، تاركاً هُرمز، التي سبق أن أخذها من البرتغاليين، تضمحلّ وتذوي مبدّلاً إيّاها بقرية صغيرة لصيد الأسماك اسمها «غومبرون» (سميت في ما بعد بندر عبّاس وأصبحت من أهم مرافىء الخليج ومراكزه)، لقربها من ساحل الباطنة.

في هذا الوقت كان حكم أسرة اليعاربة في عُمان في بدايته، التي صادفت بداية المصالح البريطانية في الخليج. وكان سلطان بن سيف الإمام الثاني في حكم اليعاربة، قد انتُخب حديثاً (١٦٤٩). وحدث الاحتكاك الأول بين الطرفين عام ١٦٥٠. وقاد اليعاربة عُمان إلى فترة ازدهار محلية ودولية. ففي عهد سلطان بن سيف (١٦٤٩ ـ ١٦٦٨) وبعده سيف بن سلطان (١٦٨٠ ـ ١٧١١) تم بناء أسطول بحري قوي لعُمان استطاع أن يطرد البرتغاليين من ساحل افريقيا الشرقية وأن يؤسس هناك سلسلة من المستعمرات العمانية. وفي العام ١٦٩٨ كان الساحل الأفريقي كله من مقديشو إلى كاب دلغادو في أيدي العمانيين. وخلال هذه الفترة طرد العمانيون الفرس من البحرين واحتلّوها، كما استولوا على مدينة سالتي على الساحل الهندي.

واستطاع حكم اليعاربة أن يضع حداً لنفوذ الفرس وأن يطردهم من أماكن كثيرة في الخليج. لكن الفوضى التي أعقبت موت سيف بن سلطان، أتاحت لهؤلاء فرصة غزو ساحل الباطنة مرة ثانية عام ١٧٤٣، والبقاء في عُمان إلى حين قيام حكم أسرة آل بوسعيد.

أدّى موت سيف بن سلطان إلى انقسام قَبَلي في عُمان، دفع البلاد إلى حرب أهلية طاحنة استمرت، في شكل أو في آخر، من ١٧١٩ إلى ١٧٤٤

حين تولّى أحمد بن سعيد الحكم بادئاً عهد حكم الأسرة السعيدية الذي لا يزال مستمراً حتى الآن. وعُرفت هذه الحرب باسم الحرب الهناوية ـ الغافرية، وقد بدأت لخلاف على الإمامة بين خلف بن مبارك الهناوي ومحمد بن ناصر الغافري. وجرّ هذا الخلاف قبائل عُمان كلها، فانضم قسم منها إلى خَلَف وصار يُعرف بالهناوية، وقسم انضم إلى محمد فأصبح يعرف بالغافرية.

وأتت الحرب الهناوية ـ الغافرية على آخر حكم اليعاربة الذين كانت عاصمتهم صحار. وتبعت ذلك فترة من الاضطرابات والفوضى اختلطت فيها الأوراق القبلية في شكل لم يعد مميزاً، مما دفع سيف بن سلطان (حفيد سيف بن سلطان الأول الذي جاء ذكره سابقاً) إلى دعوة الفرس إلى التدخّل والاستعانة بهم إلى جانب الهناوية ضد الغافرية. وكانت تلك الفرصة التي ينتظرها الفرس للعودة إلى سواحل عُمان بعدما كانوا قد احتلّوها وطُردوا منها مرات عدة. وهاجم الفرس مسقط واحتلوها عام ١٧٤٣، وبعد أشهر احتلوا صحار وأجبروا واليها أحمد بن سعيد على تسليمها. وفي هذه الأثناء كان سيف بن سلطان الحفيد قد فقد السيطرة على حلفائه الفرس، فتولّى أحمد بن سعيد، لغياب زعيم غيره، زعامة الهناوية، متراجعاً إلى بلدة بركة، آخذاً معه تجارة صحار المزدهرة وتاركاً للفرس الشيء القليل. وعزل أحمد بن سعيد في مسقط وساحل الباطنة حاملاً إيّاهم على توقيع معاهدة صداقة وسلام.

وجاء الفرس إلى بركة ليوقعوا مع أحمد بن سعيد المعاهدة. وأقام لهم أحمد احتفالاً كبيراً في قلعة البلدة، فأتخمهم بالطعام والشراب. وفي نهاية الاحتفال انقضّ العمانيون بأمر من أحمد على الفرس وذبحوهم عن بكرة أبيهم. وانسحب الفرس بعدها من صحار وساحل الباطنة ومسقط، وانتُخب أحمد إماماً عام ١٧٤٩ كبطل وطني حرّر بلاده من الفرس. ومع انتخاب أحمد بن سعيد بدأ حكم آل بوسعيد.

■ ■ ■

تصادف قيام الدولة الوطنية الإيرانية مع بداية الغزو البرتغالي للخليج. فالشاه اسماعيل (١٤٩٩ ـ ١٥٢٤) مؤسس الدولة الصفوية اعتنق المذهب الشيعي كدين رسمي لإيران، وبدأ حملة لإخضاع حكام بلاد فارس المحليين ودعوتهم إلى الإسلام. ونجح الشاه اسماعيل في إعادة حدود بلاد فارس إلى حدود دولة الساسانيين القديمة تقريباً. وكان يطمح إلى إقامة امبراطورية جديدة تعيد أمجاد امبراطورية الساسانيين. وعندما هاجم القائد البرتغالي ألفونسو البوكيرك هُرمز عام ١٥٠٧ وانتزعها من الفرس رافضاً دعوة الشاه اسماعيل إلى الطاعة قائلاً إن: «مملكة هرمز هي ملك لملك البرتغال»، بدأ الاحتكاك بين طموح الفرس للسيطرة على الخليج ومطامع الدولة الأوروبية الكبرى الآتية للسيطرة على طريق التوابل إلى الهند.

وجاء بعد ذلك الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) واستعاد هرمز من البرتغاليين معتبراً أن الاحتلال البرتغالي يتعارض مع «الشرف الوطني وازدهار مملكة فارس». كذلك استعاد الشاه عبّاس جزيرة قشم من البرتغاليين فارضاً على البريطانيين مساعدته تحت وطأة الخوف من ضياع تجارتهم بالحرير التي كانت مشتركة مع الفرس، وتَوَقُّف خطوط مواصلاتهم مع الهند. وعند هذا المنعطف، وقد قرر البريطانيون الاشتراك في الحملات الفارسية ضد البرتغال، وقّعت بلاد فارس على أثرها معاهدتها التحالفية الأولى مع بريطانيا.

ويعود السبب الأساسي لنجاح فارس في الاستيلاء على هرمز وقشم إلى استقرار الأوضاع الداخلية في البلاد تحت حكم الشاه عباس. فسياسة الفرس في الخليج كانت تعتمد، منذ ذلك التاريخ وفي استمرار، على شخصية الشاه الحاكم. فبعد موت الشاه عباس سقطت بلاد فارس تحت وطأة الغزو الأفغاني، وجرى تقسيمها بين أفغانستان وتركيا وروسيا. وخلال هذه الفترة (فترة ضعف الحكم الداخلي في فارس) انتزع العمانيون العرب البحرين من إيران كما احتلّوا جزيرة قشم وعدداً آخر من الجزر الفارسية في الخليج.

وجاء بعد ذلك نادر شاه، ليُعيد الأمور إلى نصابها محاولاً خلق

أسطول بحري فارسي قوي في الخليج. واغتيل نادر شاه عام ١٧٤٧ قبل أن يستطيع تحقيق أي من طموحاته. وعندها بدأ انهيار بلاد فارس. وشجّع انهيار الفرس العرب القواسم الوهابيين على مدّ نفوذهم إلى الشاطىء الفارسي من الخليج، مما حدا بالفرس إلى الدخول نهائياً حلبة الصراعات الأوروبية في الخليج. وفي عام ١٨٢٠ تمّت السيطرة الكاملة لبريطانيا في الخليج بتوقيع معاهدة الصلح العامة مع العرب القواسم.

واستمر الانهيار والتمزّق في بلاد فارس وسط دوّامة الصراعات الأوروبية في الخليج، وعبر تعاقب حكام عديدين ضعفاء على البلاد حتى نهاية الأسرة القاجارية. إلى أن وقع انقلاب رضا خان على أحمد شاه، آخر القاجاريين، وإعلان بداية الأسرة البهلوية. وتولّى رضا خان والد الشاه السابق عرش إيران عام ١٩٢١، وكان أول عمل قام به لدعم موقف بلاده في الخليج هو حملته على الشيخ خزعل حاكم عربستان عندما رفض الشيخ خزعل عام ١٩٢٤ دفع الضرائب لحكومة إيران المركزية في طهران بعدما كان وافق على ذلك. وكان الشاه رضا قد استطاع في عام ١٩٢٤ أن يوحّد الجيش الإيراني ويفرض سيطرته الكاملة على أكثر ربوع البلاد. وقد توافرت للشاه رضا الفرصة لبسط سيطرته الكاملة على مواقع إيران في الخليج عندما قام الشيخ خزعل بتحريض شيوخ القبائل العربية في جنوب إيران على الثورة ضد الشاه والحكومة المركزية بعد رفضه دفع الضرائب، وبدعوته وشيوخ القبائل العربية إلى عودة الشاه أحمد المخلوع من أوروبا. وهاجم الشاه رضا الشيخ خزعل في عاصمته المحمرة، وهزمه مستولياً على كل عربستان.

وكان البريطانيون قد وعدوا الشيخ خزعل بتأييده ضد حملة الشاه رضا بعدما كان قد دعمهم في احتلالهم البصرة. وحاول البريطانيون التوسط بين الطرفين، إلّا أن الشاه رضا رفض الوساطة البريطانية، معتبراً أنها قضية محلية، وشن هجوماً عنيفاً على المحمرة، سقطت على أثرها في أيدي القوات الإيرانية. وغيّر الشاه رضا اسم عربستان إلى خوزستان في محاولة نهائية لتفريسها.

منذ أن فتحت عُمان الأبواب للمرة الأولى في القرن السادس عشر

لتمركز فارسي في شكل وجود عسكري في الجزيرة العربية، إلى أن تمّ طرد الفرس من عُمان عام ١٧٤٩ على يد أحمد بن سعيد مؤسس أسرة آل بوسعيد الحاكمة في عُمان اليوم، لم تتوافر لإيران فرص للعودة إلى الجزيرة العربية إلّا في أواخر ١٩٧٣، حين استدعت حكومة السلطنة قوات عسكرية ايرانية لمساعدتها في الحرب ضد الثورة في ظفار. وكان وجود القوات الإيرانية في عُمان قد تمّ نتيجة لتجاهل الدول العربية طلب السلطنة سنة ١٩٧١ مساعدتها في وقف الثورة الآتية من الجنوب، ذلك بأن هذه الدول لم تهتم حتى بالرّد على الطلب، ولم تكلّف نفسها عناء تسجيل موقف احتجاج على وجود قوات أجنبية في أرض عربية.

فإذا كانت ثورة ظفار قد وفّرت لإيران المسرح، فإن هذا لا يعني أن إيران كانت في حاجة إلى مبرر لتقرير سياستها العسكرية التوسعية. إن هذا الأمر ليس صدفة صنعتها ظروف الخليج العربي وتطورات الأوضاع في الشرق الأوسط. لقد كانت دعامة سياسة الشاه السابق محمد رضا بهلوي المقررة منذ اعتلائه عرش فارس. بل إنها سياسة الامبراطورية الإيرانية التي التزمتها كل الحكومات التي تعاقبت على حكم إيران منذ قرن وأكثر.

كان الهمّ الإيراني الأول حماية مضيق هرمز، عنق زجاجة الخليج. فمضيق هرمز هو المكان الذي يلتقي فيه رأس مسندم من الجانب العربي، وجزيرة هرمز من الجانب الفارسي. وهذا المضيق هو صلة الوصل بين الخليج وبحر العرب والمحيط الهندي ـ وبالتالي بينه وبين أسواق النفط في العالم، وبعبارة أخرى أنه «وريد الخليج» بدُوَله وشعوبه ونفطه واقتصاده وحياته، فمن يسيطر عليه يسيطر على أهم ممر مائي في العالم، وبالتالي يسيطر على الخليج كله.

لكن الخوف الإيراني الحقيقي كان يأتي من مصدرين عربيين متناقضين: الخوف من منافسة المملكة العربية السعودية التي لا تريد إيران أن تعترف بأي دور لها في الخليج، الأمر الذي أدّى إلى توتّرٍ في العلاقات السعودية الإيرانية. وبرغم ذلك فإن العراق كان همّ إيران الأكبر. وعلى هذا الأساس فإن ٨٠ في المئة من الجيش الإيراني كان قابعاً

ومستنفراً على الحدود العراقية ليقف في وجه النفوذ العراقي في الخليج من قبل قيام الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩. واستخدم الشاه السابق الأكراد كحنفية يفتحها ويغلقها بحسب احتياجاته وتطورات الظروف. فالذي كان يجري في حينه على الحدود العراقية ـ الإيرانية وفي شط العرب هو هاجس إيران الحقيقي، لا الذي كان يجري في ظفار أو عند رأس مسندم أو في البحرين.

وعندما بلغ الشاه السابق (وآخر البهلويين) من العمر ٤٩ عاماً، وكان لا يزال في قمة طموحه، أقام احتفالات «برسيبوليس» عام ١٩٧١ لمناسبة مرور ٢٥٠٠ سنة على عرش الطاووس في بلاد فارس. وقد دلّ هذا العمل على أن تفكير إيران السياسي لا يزال تفكير دولة تعيش في القرن التاسع عشر، تبحث عن دولة عازلة، وعن معاهدات سياسية وتحالفات عسكرية وبروتوكولات ديبلوماسية. لذلك كان يخشى نشوب حرب عراقية ـ إيرانية، في حالة نشوء أي وضع جديد تعتبره إيران مصدر خطر عليها، مهما صغر حجمه أو قلّت دلالته.

■ ■ ■

لا بدّ للباحث عن دور لإيران في الخليج أن ينطلق من أسئلة أساسية عدة تكون مؤشراً له في سعيه إلى تحديد هوّية الدور الإيراني ودوافعه الحقيقية. ومن الممكن أن يكون السؤال الأول عن السوابق التاريخية والحقائق الجغرافية الثابتة، التي تؤثر على أحداث اليوم وتضغط عليها، بحيث تكون دليلنا في فهم الموقف الإيراني فهماً صحيحاً.

ولا شك في أن الصراع من أجل احتلال المركز الأقوى والأهم في الخليج ليس وحده العامل الحاسم في كل الذي يحدث اليوم بين العرب والفرس. صحيح أن هذا الصراع هو النهاية من أجل مركز ما في الخليج، إنما يجب التذكير بأن الوضع الجغرافي، مثلاً، لا ينفرد في تقرير دور إيران الآن، كما كان يقرره في الماضي. إذ ليس صدفة أن يكون الاعتقاد التاريخي السائد لدى الإيرانيين أن الخليج «بحيرة فارسية»، وأن يصر

هؤلاء بالتالي على أن دورهم الحالي ما هو إلّا تتمة لدورهم التاريخي السابق.

فقد كان حكام إيران، يعتزون تاريخياً أن بلادهم هي «أول دولة مستقلة في العالم». يضاف إلى ذلك أن الجيش، الذي هو العمود الفقري للاستقرار الداخلي، دفع عند تقويته كل حاكم إلى التطلّع نحو الخليج. وإذا كانت الظروف الداخلية المريحة هي التي تقرر إلى حدّ ما قدرة إيران على أن تلعب دوراً كبيراً في الخليج، فإن الظروف الخارجية كانت تحدّ من حرية الحركة لدى الإيرانيين بمقدار ما كانت تساعد هؤلاء وتشجّعهم على العمل في الخليج والاضطلاع بدور أساسي وفعّال.

لكن كيف تتفق وأين تصطدم المصالح الإيرانية والمصالح العربية في الخليج؟

بدأ اهتمام الشاه السابق بالخليج في عام ١٩٥٨، إثر ثورة العراق التي أطاحت بالملكية، وتولّي عبد الكريم قاسم الحكم. قبل ثورة العراق كان الشاه محمد رضا بهلوي يتابع تطورات العالم العربي دون خوف منها، وكانت إيران على علاقات ودّية مع معظم الدول العربية بما فيها سورية ومصر، حتى أنها أيّدت مصر في حرب السويس عام ١٩٥٦. ذلك لأنها كانت تشعر بأن وضعها في الخليج سليم ما دامت الملكية قائمة في العراق، الدولة الشريكة لها في حلف بغداد. وبعد الثورة العراقية خافت إيران من «لعبة دومينو» خليجية، فتكون ثورة العراق مثالاً يُحتذى في مختلف دول الخليج.

ومنذ ذلك الوقت والعلاقات العربية ـ الإيرانية تسير من سيء إلى أسوأ كلّما كان الخلاف يشتد بين الشاه السابق والرئيس الراحل جمال عبد الناصر، بل كلّما اتسع مدّ القومية العربية بزعامة عبد الناصر وأحزاب اليسار في العالم العربي، معمقاً الفجوة بين الدول العربية «التقدمية» والدول العربية «الرجعية»، كلما أصبحت إيران طرفاً في الحرب العالمية الباردة في الستينات والسبعينات. إلّا أن الخلاف حول الخليج لم يقتصر على الدول «التقدمية ـ الثورية»، بل تعدّاه إلى الدول «اليمينية ـ الرجعية».

فقد اختلفت إيران من جهة، والسعودية والكويت، من جهة أخرى، عندما عرضت إيران للمناقصة التنقيب عن النفط في المنطقة التي تُشكّل جزءاً من الجـرف القـارّي بين الدول الثلاث. وسُوِّيَ الخلاف ودياً مع الكويت عام ١٩٦٥، ومع السعودية عام ١٩٦٨.

ثم تجـدّد الخلاف مع السعودية حول السيادة على جزيرتي فارسي وعـربي التابعتين للسعودية، واللتين تطالب بهما إيران. ولم يُحلّ هذا الخلاف إلّا عام ١٩٧١.

ثم كان خلاف إيـران والعراق حول شط العرب الذي بدأ منذ أيام الشاه رضا، والد الشاه السابق، عندما حاول رضا خان أن يثبّت وجوده في الشط ويؤكد موقع بلاده من الخليج. ورفع العراق الأمر إلى عصبة الأمم في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤، محاولاً الحصول من مجلس العصبة على اعتراف بحق قانوني في ممارسة السيادة على الشط كلّه، إلى جانب ممارسته السيادة الواقعية. وقاومت إيران الموقف العراقي، إلى أن تمّ الاتفاق بين الطرفين على نقل الخلاف إلى خارج عصبة الأمم، ومن ثم على حدود لشط العرب في ٤ تموز (يوليو) ١٩٣٧. واستمر الاتفاق الأخير ساري المفعول إلى أن ألغته إيران من طرف واحد في ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٦٩. وكان سبباً مباشراً لنشوب الحرب مع العراق بعد عقد كامل من الزمن.

وإذا أخذنا مجمل الخلافات العربية ـ الإيرانية في الخليج، نجد أن الخلاف حول شط العرب له أهمية خاصة بالنسبة إلى إيران. فشط العرب قريب من خوزستان (عربستان)، وهي منطقة تمرد محتمل في استمرار، وقـريب من منـابـع النفط فيها، وقريب من عبادان ومصفاتها الكبيرة ومعداتها الكثيرة والتي هي على مرمى النار من شط العرب، وقريب من سد «دز» ومشاريع الريّ والكهرباء في تلك المنطقة. وازدادت أهمية شط العرب بازدياد الخلاف حول القضية الكردية، التي ـ كانت وما زالت ـ تتولّى إيران تصعيدها عندما تناسبها الظروف.

تُضـاف إلى ذلك الحـرب العربية ـ الإسرائيلية واحتمال اشتعالها مجـدداً في أي وقت، وتغيير المقاييس الدولية والمحالفات الاستراتيجية

وازدياد الأهمية الاقتصادية للعراق ودول المنطقة. فإذا كان مضيق هرمز أهم مركز استراتيجي سياسي ـ عسكري لإيران شرق الخليج، فإن شط العرب هو المركز الذي لا يقل عنه أهمية غرب الخليج.

وجاء احتلال إيران لجزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١، بعدما كان الخلاف حول البحرين قد سُوِّيَ بإسقاط المطالبة الإيرانية بها وإعلان استقلالها في ١٤ آب (أغسطس) ١٩٧١، صفعة قوية للذين كانوا يقولون إن إيران لن تلجأ إلى القوة في حلّ خلافاتها مع العرب. ولم تتحدّث إيران عن حقوقها التاريخية المزعومة في الجزر العربية الثلاث إلّا بعدما سُوِّيَت قضية البحرين. فأهمية الجزر سياسية واستراتيجية ولا تستند المطالبة بها إلى أي أساس تاريخي صلب. وكان توقيت إيران لاحتلالها الجزر بارعاً.

إذ حدث قبل شهر تماماً من انسحاب بريطانيا نهائياً من الخليج، وفي الوقت الذي لم تكن بريطانيا تستطيع فيه القيام بأي إجراء عسكري مضاد. كذلك كان العالم مشغولاً بالحرب الهندية ـ الباكستانية التي أسفرت عن انفصال باكستان الشرقية وإعلان استقلال بنغلادش. وكانت أزمة الشرق الأوسط في أوج توترها، كما كان خطر قيام حرب جديدة مع اسرائيل قريب الاحتمال. لذلك فشل الإيرانيون في فهم الاستياء العربي من عملية الاحتلال، الذي كان أول احتلال حقيقي منذ الحرب العالمية الثانية، وبخاصة أن ردود الفعل العربية جاءت مختلفة ومتناقضة ومتباعدة.

كل هذا تغيّر فجأة عندما أُعلن في الجزائر في ٦ آذار (مارس) ١٩٧٥، أثناء انعقاد مؤتمر القمة للدول الأعضاء في منظمة البلدان المصدِّرة للنفط «أوبيك»، اتفاق عراقي ـ إيراني ينهي الخلاف العريق بين البلدين حول قضيتين أساسيتين:

الأولى، إنهاء المساعدة الإيرانية للأكراد بزعامة الملاّ مصطفى البرزاني، وبالتالي نهاية الحرب الكردية ـ العراقية وتصفية جيوبها كلياً.

الثانية: تخطيط الحدود البرّية (شمال العراق) والنهرية (شط العرب) للبلدين في شكل نهائي.

وكان التفسير المنطقي لهذا الاتفاق أنه يحقق الآتي:

١ ـ وقف خطر الحرب بين أكبر دولتين هما إيران والعراق وصيانة الأمن والاستقرار في المنطقة.

٢ ـ إزالة حالة التوتّر والشكوك بين دول المنطقة وفتح آفاق واسعة بينها وحلّ مشكلات كانت قائمة. وهذا بالتالي يؤدي إلى تلاحم عربي خليجي يجعل من عرب المنطقة قوة تعاون وأمن واستقرار كبيرة.

٣ ـ عودة العلاقة الطبيعية مع ايران إلى جانب ما يشكل التلاحم العربي الخليجي من قوة مضاعفة.

٤ ـ احتمالات التدخّل الأميركي في دول النفط تضمحل أو تقلّ إلى حدّ كبير، لأنه لم يعد في استطاعة الولايات المتحدة استغلال خلاف محلي خليجي. ولو استمر هذا الخلاف لكان في وسع واشنطن مثلاً أن تستغلّ حادث ضرب باخرة في الخليج، أيّاً تكن جنسيتها واعتبارها، مبرراً للتدخّل بحجة الحفاظ على الملاحة وتأمين وصول الطاقة إلى الدول الصناعية. لكن بعد التفاهم الإيراني ـ العراقي سدّت الثغرة وزالت كل مبررات التدخّل الأميركي الذي يمكن أن يحدث، لكن من دون أن تستطيع واشنطن إيجاد أي عذر له أمام المجتمع الدولي.

٥ ـ إبقاء الموازين الدولية على ما هي دون تغليب الكفة الأميركية على غيرها.

٦ ـ الإبقاء على وحدة منظمة «أوبيك». والدليل على ذلك ترحيب دول النفط في العالم وإجماع مندوبيها في قمة الجزائر على الإشادة بالاتفاق العراقي ـ الإيراني، كما أن دول النفط في أميركا الجنوبية أعلنت صراحة أن الاتفاق انتصار لمنظمة الدول المصدِّرة للنفط وتعزيز لوحدتها التي كانت مهددة، وهذه الوحدة إذا استمرّت لا بدّ وأن تخلق وحدة عالمية هي في خدمة مصالح العالم الثالث.

لا شك أن الانسحاب البريطاني من الخليج ومضاعفاته قد وفّرت لإيران الأسباب الكاملة للسيطرة والتدخّل. ذلك بأن إيران لم تكن لتقبل

أن تملأ الفراغ العسكري والسياسي الذي تركته بريطانيا، أي من الدول الكبرى وبخاصة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. فهي تعتبر نفسها الوريثة الشرعية للراج البريطاني، وأن أمن الخليج هو مسؤولية دول الخليج وعلى وجه التحديد: مسؤوليتها مع بعض التعاون مع السعودية والكويت والعراق إذا أمكن.

وإيران كانت تعرف أن عليها أن تعتمد على قوتها فقط للحفاظ على ما يسمى «أمن الخليج»، لأن لا سبيل للتوصّل إلى اتفاق حول هذا الموضوع مع دول الخليج العربية. وإذا كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يشتركان في الرأي في أن الأمور الخليجية يجب أن تعالجها دول الخليج نفسها لا دول أخرى، فإن من الصعب التصوّر، نظراً إلى أهمية المنطقة، أن الخليج سينجو من المنافسة الأميركية ـ السوفياتية. فالفجوة بين الموقف الأميركي ـ السوفياتي المعلن والنظري، وواقع المنافسة أو الخلاف الأميركي ـ السوفياتي قد ازدادا، لأن القوتين الجبّارتين أدركتا أن مصالحهما في الخليج أكبر وأهم من أن تترك لسياسة عدم التدخّل نهائياً.

إلّا أن دور إيران في الخليج، أساسي وضخم، ولا يجوز التقليل من أهميته أو حجمه. فإيران أقوى دول الخليج عسكرياً وبشرياً. وهي تعتبر أن الخليج بحيرة إيرانية سميت مجازاً الخليج العربي، اذ استبدل العرب كلمة «فارسي» بكلمة «عربي» رفعاً لمعنوياتهم لا غير. وعلى هذا تتصرف إيران تصرّف القوي العارف قوته الحقيقية، الواضح المطامع والأهداف، والمحدد سياسة المنطقة كلها. ومطالبها قديمة، إلّا أنها لم تتحوّل من مجرد مطالب إلى خطر داهم إلّا مع رفع المظلة البريطانية. واعتبرت إيران نفسها أنها ذات الحق الوحيد في ملء الفراغ.

وقضية إيران لا تنتهي. فالقوة الإيرانية ذات شقّين:

الأول ـ القوة العسكرية، التي تعتبر الأبرز في المنطقة، والتي تدعم إيران مطالبها بها.

والثاني ـ القوة المدنية الممثلة في الجالية الإيرانية الضخمة الموزعة من الكويت شمالاً، حتى رأس الخيمة جنوباً.

فعن طريق التهديد باستخدام الأولى، وتحريك القوة الثانية بدعوتها إلى عصيان مدني تستطيع إيران، كما تعتقد، أن تُحقق أغلب مطالبها، وربما مطامعها. يُضاف إلى ذلك اعتبار إيران نفسها الدولة الحامية للشيعة، من العراق شمالاً إلى سلطنة عُمان جنوباً، محاولة في استمرار تشويه ولاء الشيعة العرب في الجزيرة العربية والخليج، أكانوا في عسير شرق السعودية، أم في البحرين أو عُمان، من دون أن ننسى شيعة العراق. فإقحام شيعة الخليج في عملية المطامع الإيرانية، ووضعهم تحت مظلة الحماية الإيرانية، وبالتالي تعريضهم للتشكيك الدائم في وطنيتهم وعروبتهم، لم تعطِ أي نتائج إيجابية حتى الآن، لكنها تعرّض المنطقة في استمرار للانقسام الطائفي الذي لم تعرفه منذ أيام الحَجّاج بن يوسف.

من على مشارف الأحقاد التاريخية التي تُذكيها إيران في الخليج، ومن على أعتاب الشكوك الحضارية الفاصلة بين الفرس والعرب، ومن جذور خلافات الاجتهاد بين مسلمي الشيعة والسنة، كانت إيران وما زالت تجد منفذاً واسعاً وباباً مفتوحاً ونافذةً مشرعةً لتدخل إلى ركاكة الكيان العربي، فتشتري صمت العرب بأبخس الأثمان، من دون أن يُدرك العرب، خليجيين ومشرقيين، أنهم أمام تحدّي صيرورة المستقبل كله.

■ ■ ■

في قراءة سريعة للتاريخ الإيراني ـ الفارسي، يتضح أن أي حاكم لإيران كان يواجه عاملين أساسيين: الدين والجغرافيا. ومن خلال هذين العاملين كان يتم التحكّم في السياسة الإيرانية خلال تعاملها مع العرب. لم يكن هاجس إيران خلال السنوات الخمس عشرة الماضية كما كانت تدّعي، إيقاف زحف الجليد السوفياتي إلى منابع النفط الدافئة، ولا إيقاف أطماع الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين عند حدود الهند. لقد شغلت العلاقات العربية ـ الإيرانية فترة السبعينات كلها. شغلت العرب وشغلت إيران وشغلت الغرب وشغلت روسيا السوفياتية وشغلت الصين الماويّة. وجاءت الثمانينات بالحرب العراقية ـ الإيرانية لتدمّر نهائياً هذه

العلاقات، وتعيد الزمن الى الوراء وتفضح الأطماع الفارسية على حقيقتها.

خيّم الخوف على كل ما أحاط العلاقات العربية ـ الإيرانية، بدءاً من تناقضات مسيرة التاريخ الإسلامي المشترك الطويلة والعلاقة المتنافرة الفريدة بين الشعبين العربي والفارسي، وانتهاءً بعبء التراث من تطلّعات الحاضر ودروس الماضي واستقراء المستقبل. كان كل ما في العلاقات العربية ـ الفارسية ينذر بالخوف. ولم يزُلْ هذا الخوف بزوال الشاه. كان الخوف العربي في حينه خوفاً جغرافياً. وقد تضاعف بوجود الخميني وأصبح خوفاً دينياً تدفعه طموحات جغرافية. تأجّل هذا الخوف فترة قصيرة من الوقت ما بين سقوط الشاه وتولّي الخميني السلطة. أجّل العرب هذا الخوف تفاؤلاً منهم. واغتال آيات الله الإيرانيون التفاؤل العربي ببراعة فريدة. وظلّ بين الهاجس الإيراني والخوف العربي خيط رفيع يفصل بين الضعف العربي والرعونة الفارسية.

اعتبرت إيران أن الخليج بحيرة فارسية، وأن عربستان جزءٌ من فارس الكبرى، وأن البحرين جزيرة «إيرانية» طالب بها رضا خان سنة ١٩٢٧، واقتطعها العرب وبريطانيا من «الوطن الأم»، ولها في مجلس النواب الإيراني حتى عام ١٩٧١ نائب يمثّلها باعتبارها المقاطعة الحادية والعشرين. وإن ما رضخ له الشاه تجاه الضغط الدولي، رفضه الخميني الذي عاد مطالباً بالبحرين كجزء من إيران محاولاً قلب نظام الحكم فيها سنة ١٩٨١. وإن تجديد المطالبة «بفارسية» البحرين تمّت في عهد الثورة الإسلامية التي تطلّع إليها كل العرب انتصاراً وفرحاً وإعجاباً.

لكن المطالبة بالبحرين لم تسقط مجاناً. لقد استعاض عنها الشاه باحتلاله ثلاث جزر عربية هي: طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى، التابعة لكل من رأس الخيمة والشارقة، الامارتين العضوين في دولة الامارات العربية المتحدة. ويوم سقط الشاه وأطلّت ثورة الخميني منتصرة وهلّل العرب لها، وطالبوا بإعادة الحق الذي اغتصبه الشاه ـ الطاغية الذي أسقطته الثورة ـ جاء الجواب من آيات الله الحاكمين في طهران: إن هذه الجزر فارسية وستبقى فارسية. وأصبح منذ ذلك التاريخ

للقـوة الإيـرانيـة ـ الشـاهنشاهية والخمينية ـ مطل مبني على العجز العربي المتأصل والفهم الدولي لهذا العجز الدائم.

واعتبر الشاه نفسه بأنه صاحب الحق الوحيد في ملء الفراغ الناتج عن انسحاب بريطانيا في نهاية ١٩٧١، وأن بلاده هي الوريثة الشرعية لمصالحها ومصالح الغرب في المنطقة الخليجية بحكم كونها أقوى الدول المجاورة من الناحية العسكرية والاقتصادية والبشرية، معتمدة على هذا العجز العربي المتأصل وبحكم ما لها في الجالية الإيرانية المنتشرة في كل دول الخليج من عناصر يمكن الاعتماد عليها كلياً عند الحاجة.

عنـدمـا أطلق الشـاه العنان «للعسكريتاريا» الإيرانية، بأسلحتها وعتـادهـا وعـددهـا ومـدربيها من الأميركيين والبريطانيين، وأصبحت بَحْـريتهـا الأقـوى في المحيط الهندي، وطيرانها يغطّي سماء الجزيرة العـربيـة، وجيشها يقف على مشارف بلاد اليمن العربية، ومخابراتها تحصي أنفاس الملائكة في المنامة والدوحة ودبي وأم القيوين، لم نسمع بوقفـة عربيـة واحـدة تحـاول أن تضعـه عنـد حدّه. وبـذلك حدّدت العسكريتاريا الإيرانية معالم الأطماع الإيرانية وعززت غرور الشخصية الفـارسيـة في تعـاملها مع العرب. ولا أعتقد أن أحداً من السياسيين العـرب، وخـاصة الخليجيين من الذين تعاملوا مع الإيرانيين منذ عام ١٩٦٧، ينكر مدى التعامل الفوقي الذي كان يمارسه الإيرانيون معهم. وأصبحت السيـاسـة الإيـرانية في المنطقة العربية تعتمد على التهديد والترغيب، العصا والجزرة، العصا لمن تمرّد والجزرة لمن أطاع. وبذلك استطاعت إيران أن تضع يدها على هواجس الضعف العربي في كل مكان.

والحرب العراقية ـ الإيرانية ما هي إلّا نهاية منطقية للدور الصدامي التاريخي الذي أهّلته لها الظروف السياسية في المنطقة. فجذور الخلاف العـربي ـ الفـارسي قائمـة في الأصـول الثقافية والحضارية والقومية والمتبـاعـدة والمختلفـة للشعبـين. والمشـاركـة والمساهمة في الحضارة الإسـلامية لم تغيّرا من أحقاد العرب والفرس وتباعدهم قبل الإسلام. والشخصية الفردية في الأمتين لم يُلغِ الإسلام منها شيئاً ولم يُذبها. ولم

يحقق العرب عن طريق الإسلام اندماجاً عضوياً أو وحدوياً مع الفرس. بل استطاع الفرس أن يغيّروا الكثير من المفاهيم الأولية والأصلية للإسلام كما جاء به العرب. فلقد كانت لبلاد فارس عبر التاريخ شخصية مميزة وحضارة مستمرة وحدود مستقرة إلى حدّ ما، ذلك أن الفرس كأمة ليست كالعرب ممزقة بين الشعور الوطني القومي والإغراء الإسلامي الأوسع. لقد تخطّى الانفصال الجغرافي، مع اللغة والثقافة المميزة للفرس، الشعور الديني المشترك مع العرب وغيرهم من مسلمي العالم. وجاءت المفاهيم السياسية الحديثة لتصعّد من حدة الخلافات بين الفرس والعرب، مكرّسة عدم الثقة المشتركة، ومعمقةً قوة الخوف المتبادلة.

كان لحكام إيران طموح دائم إلى القيام بدور أساسي في الخليج. وكثيراً ما كانت شخصية الحاكم الإيراني هي التي تقرر دور بلاده في الخليج، من داريوس الكبير والملوك الساسانيين في التاريخ القديم، إلى الشاه عباس الكبير إلى نادر شاه إلى الشاه محمد رضا بهلوي إلى آية الله الخميني في التاريخ الحديث. كلهم كانوا يسعون إلى احتلال المركز الأقوى والأهم في الخليج ويؤججون الصراع من أجل هذا الدور.

أراد الشاه السابق محمد رضا بهلوي أن يملأ فراغ الراج البريطاني في الخليج طوال فترة السبعينات، بدعم وتشجيع وتسليح وتحريض من الغرب، عندما لم يكن في الخليج تلك الفترة طرف عربي يملؤه. فترك الأمر للأسد الفارسي وشمسه بالأصالة والوكالة. وأراد آية الله الخميني أن يملأ الفراغ الثوري في الخليج عن طريق الإسلام في بداية الثمانينات بتصدير ثورة لا تُصدَّر. فجاء عن طريق التحريض الديني المذهبي والعرقي يدعو إلى شيء غير مألوف ولا مقبول ولا سابقة تاريخية له عند العرب.

واتضح مجدداً مدى اتساع الهوة في المفهوم القومي والمفهوم الثوري بين العرب والفرس. فالفكرة القومية عند العرب كانت دائماً متصفة بالتسامح الديني والتآلف العرقي والتآخي المذهبي والتعددية الشخصية. بينما كانت الفكرة القومية عند الفرس مغلقة دائماً بالعرقية

التي أدخل عليها الشاه الطابع الآري، وبالشوفينية المعادية لكل ما هو غير فارسي حتى الإسـلام ـ وفي المـذهب الشيعي الجعفـري الاثني عشري ـ أصبح له مدلول مختلف عن غيره من الشيعة غير الإيرانيين، وطابع فارسي صرف بل وحتى طقوس قلّما تمارس خارج إيران. لقد ظلّت الطموحـات الإيـرانيـة الجديدة في الخليج تستلهم الأحلام الفارسية الماضية مصرّة على أن دور الثورة الإسلامية في إيران حالياً ما هو إلّا تتمة لدور ثورات «ملوك الطوائف التاريخي» السابق. لذلك لم تستطع ثورة الخميني أن تتجنّب الانـزلاق ضد العرب ما دامت تتحكّم فيها عقلية القرن العاشر الهجري.

■ ■ ■

ساعـة سلّمت الجمـاهـير الإيرانية إرادتها بكامل وعيها إلى سلطة الخميني، أوحت مباشرة بأن هناك اتفاقاً خاصاً بين آية الله ـ روح الله وبين السماء. فهما وحدهما يعرفان ما هو في مصلحة إيران.

لكن الرجل الذي يعتقد أنه على تفاهم مع السماء، استطاع بعبقرية ثورية وتنظيمية لا سابق لها في تاريخ الثورات المعاصرة في العالم الثالث، أن يسقط نظاماً منيعاً كنظام الشاه. فقد فهم الخميني حقيقة الشعور الشعبي في إيران خلال خمسة عشر عاماً من المنفى السياسي بين العراق وفـرنسـا، أكثر مما فهمه الشاه خلال ثلاثين سنة من الحكم. وأدرك، الخميني أن الإسلام هو من القوة بمكان بحيث ينهي نظاماً كنظام الشاه أقيم على الاضطهاد والعبادة الشخصية وثروة النفط والفساد والمصالح الغربية والدعم العسكري الأميركي. وكان ناجحاً في هذا الفهم.

إلّا أن الخميني نسي بعد أشهر من عمر الثورة أن معظم الإيرانيين يريدون سيوف الإسلام التي شهروها في وجه الشاه ونظامه أن تتحوّل إلى بيـارق للحـريـة والعـدالة والمساواة الاقتصادية التي يدعو إليها الإسلام جوهراً وحركة وتطبيقاً.

لقـد سقـط الشـاه لأن الإيـرانيين كانوا على استعداد لأن يقاوموا

بعيونهم مخالب الشاه، ويستقبلوا الموت كالشهداء بكل ما في التاريخ الإسلامي الشيعي من تقاليد وتراث وأساطير للثورة والاستشهاد. فثارت الجماهير الإيرانية بوحي هذا الإيمان مستلهمة زعامة الخميني من خارج الحدود. واستطاع هذا الرجل أن يحرّك من المنفى أعنف مشهد ثوري عرفته إيران منذ دخولها حلبة الصراع الدولي في بداية هذا القرن.

وظلّت زعامة الخميني النادرة تستقطب العدد الأكبر من المؤيدين والأنصار، في الوقت الذي دبّت فيه الخيبة بين أوساط الإيرانيين الداعين إلى حكم عصري ديمقراطي يكفل الحريات الأساسية ـ من شخصية وفكرية وسياسية ـ التي كان قد سلبها الشاه. وجاء الاستفتاء على الجمهورية ليعطي الشرعية النهائية للجمهورية الإسلامية. وأدرك الخميني أن القوة العاطفية للثورة قد انتهت، فلجأ إلى تطبيق نظرياته.

فقد خشي الخميني إبّان المدّ العاطفي للثورة من الوقوع في شباك التسوية والمساومة مع القوى السياسية العاملة في إيران والمشاركة للثورة، بحيث تحجب رؤياه الحقيقية ما كان يريده من الثورة أصلاً. وإذا بأفكار ومبادىء الجمهورية الإسلامية كما يعرفها ويريدها وكما دعا إليها أصلاً في مؤلفاته لا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول.

وبعقل السياسي الثاقب الذي يملكه، عرف الخميني أنه يستطيع أن يقاوم تيار الديمقراطيين والليبراليين ودعاة الحرية والدستورية من مختلف الفئات والأحزاب الإيرانية من يمينية ويسارية وسواها، ما دامت هناك جماهير قابلة للاستشهاد في سبيل مبادىء الجمهورية الإسلامية حسب طروحات الخميني لها، والخروج إلى الشوارع بدعوة منه لاستقبال الموت برحابة صدر قلّما عرفتها دولة من قبل. فهو وحده قادر على الصمود، وكأن العالم كله قد تحوّل إلى الإسلام كما يفهمه ويريده هو.

وأعلن الخميني ولاية الفقيه، وعيّن نفسه قائداً أعلى للقوات المسلحة، واستبدَلَ برئيس الجمهورية رئيساً آخر، وبرئيس الوزراء ثلاثة من بعده، وخرج بدستور جديد، وأقال برلماناً لا مكان فيه للخوارج السياسيين أو الدينيين، وانتخب مجلساً من آيات الله ليلوا الفقيه من بعد موته، وخاض

مع العراق حرباً دامت ثمانية أعوام، من خلال تصوّره أنها حرب بين المسلمين والكفرة، دفع في أتونها آلاف الشهداء تحت شعار الإسلام.

خلال هذه الفترة وقع في إيران حدث هام على الصعيد الداخلي، حين واجه الخميني حركة معارضة تختلف في شكلها ومضمونها عن باقي الحركات التي واجهها نظامه عبر السنوات. وعُرفت هذه المحاولة بحركة تبريز. وفشلت الحركة، إلّا أنها استطاعت أن تترك بصماتها على النظام في طهران بحيث هددت مفاهيم الثورة الإسلامية كلها.

وأول ما يلفت النظر في حركة تبريز أنها لا تحمل بوادر انفصالية، كغيرها من الحركات القومية الإيرانية، بقدر ما تشكّل أول تحدّ حقيقي وعلى مستوى وطني لسلطة آية الله الخميني على المستوى السياسي والديني والعرقي. لقد بدأت حركة تبريز من قِبل الحزب الإسلامي الشعبي الجمهوري، الذي هو حزب الأكثرية في أذربيجان ويبلغ تعداد أعضائه المليون ونصف المليون عضو منتسب، والذي يتزعّمه روحياً آية الله كاظم شريعتمداري.

وكان هدف الحركة الأساسي معارضة الدستور الإيراني الجديد الذي استُفتي عليه في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩، وأعطي بموجبه آية الله الخميني صلاحيات مطلقة تفوق الصلاحيات التي كان يتمتّع بها الشاه السابق. وقد اشتعل فتيل الاضطرابات بحادثة إطلاق النار على منزل شريعتمداري في قم من قِبل بعض أنصار الخميني. ووفرت هذه الحادثة كل المبررات المطلوبة لاحتلال مبنى الإذاعة والتلفزيون في تبريز، والاستيلاء على المباني الحكومية، وطرد حاكم أذربيجان المعين من قبل الخميني. وفي غضون أسبوع واحد كان الحزب قد استولى على المدينة كلها ما عدا ثكنات الجيش والحرس الثوري اللذين «وقفا على الحياد».

لقد عانت حكومات إيران الخمينية من مشاكل الأقليات القومية، التي كان أعنفها التمرّد الكردي في الشمال الشرقي من البلاد. لكن وضع وقضية أذربيجان يختلفان كلياً عن غيرها من المشاكل. فالأذربيجانيون هم أكبر أقلية قومية من حيث العدد في إيران، ويسكنون أكبر المناطق

مساحة، ويتحدثون اللغة التركية القديمة، أو نوعاً من التركية على وجه التحديد، وهم متواجدون بأعداد كبيرة في مختلف أنحاء إيران. إلى جانب أنهم الوحيـدون من الأقليات القومية غير الفارسية الذين ينتمون الى المـذهب الجعفـري الشيعي، بينمـا الأقليات القومية الأخرى هي من السُنّة. وآية الله شريعتمداري ليس فقط زعيم الأذربيجانيين، إنما أيضاً فقيـه الشيعة الآخر الذي يقيم في قم إلى جانب الخميني، وينافسه في النفوذ ويختلف معه في الرأى.

في طهران وحدها، يوجد أكثر من مليون أذربيجاني يسيطرون على الأسواق التجارية والبازار. والرقم ليس مهماً، إنما المهم أنه بقدر ما كانت الأقليات الأخرى هامشية الدور إلى حدّ ما بالنسبة للثورة ضد الشاه، كان الأذربيجانيون أساسيين في صنعها ونجاحها. وكانت أول حلقة في الأحداث التي أدّت إلى سقوط الملكية قد وقعت في تبريز، وأن أول تصدّع في الجيش المـوالي في حينه للامبراطور وقع في أذربيجان عندما أعلنت وحداته في أذربيجان ولاءها للثورة. وأهم من ذلك كله أن الأذربيجانيين من الشيعة يشعرون بوحدة العقيدة الدينية مع الأكثرية الفارسية، وأن زعيمهم آيـة الله شريعتمداري كان صاحب دور أساسي في الثورة، لا يفوقه فيه إلّا آية الله الخميني.

إن قبول السُنّة من الأكراد والعرب والبلوش بالدولة الإيرانية قد يكون مشروطاً ومتحفظاً، وولاءهم مشكوك فيه إلى حدّ كبير. أما الأذربيجانيون الشيعـة فولاؤهم للدولة الإيـرانيـة أمـر فوق كل الشكوك والشبهات. والأذربيجانيون يعتبرون أنفسهم إيرانيين أولاً ثم أذربيجانيين. لذلك فهم يرفضـون تهم الخميني بأن ما حدث في تبريز وما يطالبون به هو «مؤامرة ضد الثورة». الأذربيجانيون يقولون: «هذا كلام هراء. سَلْ في البازار، سل في الشوارع، سل في المدارس. بدَلَ أنْ نُتّهم بالتآمر، يجب على الإيرانيين من أنصار الخميني وسواهم أن يتساءلوا لماذا حدث كل ذلك».

لذلك فإن التحدّي الأذربيجاني للحكم الخميني في ايران ليس مسألة حقـوق قومية أو مطالب أقلية بالحكم الذاتي. صحيح أن هذه الأمور تدخل في جملة المطالب الأذربيجانية، لكن الموقف الأصلي والأساسي هو

في الموقف المختلف الذي يقفه الأذربيجانيون من الثورة ودستورها ومسارها وممارساتها ومستقبلها.

فعلى الصعيد الديني مثلاً، يكره الأذربيجانيون تقدم الخميني على شريعتمداري. ويقولون أن شريعتمداري هو «السلطة الدينية العليا»، بينما الخميني هو «زعيم الثورة». لكن المسألة ليست في هذه البساطة ـ من يتقدم من في الشؤون الدينية ـ ولا في تفضيل الأذربيجانيين لأحد آيات الله «الخاص بهم» على الآخر، فمنذ بدء الثورة، وحتى قبلها، كان هناك خلاف عميق في التفكير السياسي بين شريعتمداري والخميني.

وطوال فترة الاضطرابات الثورية في إيران، ظل شريعتمداري متمسكاً بالموقف الشيعي التقليدي القائل بأنه منذ نهاية الخلفاء الراشدين، ليست هناك سلطة زمنية إلّا وهي سلطة ناقصة. قد تكون الحكومات عادلة أو لا تكون، إنما يبقى دور السلطة الدينية خارجها وفي مواجهتها، إن لم يكن في معارضتها. لذلك كان شريعتمداري يقول باستمرار: «إما أن يكون هناك ملك، أو لا يكون»، مشيراً إلى رأيه القائل بأن الحكومات ملكية أو جمهورية، عادلة أو غير عادلة، أمر مختلف وشيء منفصل عن الدين وقيمه.

بالنسبة إلى شريعتمداري وأنصاره، ليس للإسلام، كدين، دور أساسي في السلطة. وبالتالي فإن الدعوة بهذا الاتجاه ليست الدعوة الصحيحة. وهنا يلتقي شريعتمداري مع المثقفين العلمانيين من معارضي الدستور الجديد الداعي إلى «ولاية الفقيه» ـ أي حكم المجتهدين باعتبارهم نواباً للإمام الغائب عند الشيعة ـ الذي تكون له في النهاية «ولاية الأمر». أي بكلام أبسط، إعطاء السلطة المطلقة لرجل واحد من رجال الدين. ولماذا يستقطب شريعتمداري هذا المد الإيراني المعارض للخميني؟ «ربما لأنه أذربيجاني. وربما لأنه معتدل. وربما أيضاً لأنه ليس رجلاً حقوداً» ـ على حدّ تعبير أحد الأذربيجانيين ـ إنما الأهم من كل هذه الأسباب مجتمعة، لأنه لا يريد لرجال الدين أن يتولوا السلطة.

من الطبيعي أن تكون حقوق الأقليات القومية جزءاً من القضية الأذربيجانية. فهم يقولون أن الخميني لا يعترف شخصياً، ولا الدستور

الايراني الجديد بالحقائق البديهية الصارخة: أن نصف سكان ايران ليسوا من الفرس، ولا يتكلمون الفارسية، ولا ينتمون الى المذهب الشيعي. ونتيجة لهذا الموقف جاء الموقف التضامني معهم من جيرانهم الأكراد.

وبما أن الأذربيجانيين، كشعب، ليس مشكوكاً في ايرانيتهم، فهم، بالنسبة للأكراد وباقي الأقليات القومية، الوسيلة الصالحة للدعوة الى الاعتراف بمطالب الأقليات القومية دستورياً، كذلك فإن وجودهم داخل هذه البوتقة عامل اعتدال للتخفيف من مطالب القوميات المتطرفة. لذلك فهم لا يسعون الى مواجهة نهائية مع نظام الخميني، كما لا يريدون السلام بأي ثمن. لكنهم على استعداد إذا اقتضى الأمر أن يسلكوا الطريق الكردي، وهم بين سبعة وثمانية ملايين نسمة. ولأن نسبة عالية من الأذربيجانيين منتسبة الى سلك الشرطة والأمن والجيش والحرس الثوري، فهم يدركون أن الخميني لن يستطيع أن يقمع بالقوة أي تحرك ضد السلطة في طهران، لوجود هذه العناصر الأذربيجانية التي ستقف على الحياد.

عندما نتحدث عن الأذربيجانيين، فنحن لا نتحدث عن المقاطعة الايرانية في الشمال الغربي من ايران فقط، بقدر ما نتحدث عن التركمان. والتركمان هو الاسم الآخر للأذربيجانيين. كذلك نتحدث عن أذربيجان الأخرى. الجمهورية السوفياتية التي عاصمتها باكو، والتي هي الجمهورية الاسلامية الشيعية الوحيدة بين الجمهوريات الاسلامية السوفياتية الأخرى كأوزبكستان وكازاخستان وتركمانيا. ولأن للأذربيجانيين جمهورية باسمهم في الاتحاد السوفياتي، فهم لا يشعرون في ايران بهذا الدافع القوي لكيان مستقل بالشكل الذي يشعر به الأكراد مثلاً. ولأن الكيان المستقل للأذربيجانيين قد عنى حتى الآن جمهورية سوفياتية تحت السيطرة الروسية، ولأن العلمانية الشيوعية جردت الأذربيجانيين من الكثير من خصائصهم التاريخية وتقاليدهم الدينية، لذلك فهم أكثر تمسكاً باسلاميتهم وايرانيتهم من باقي الأقليات خوفاً أن لا يكون الاستقلال طريقاً آخر الى باكو.

والوجـه الآخـر لأذربيجـان هو علاقتها التاريخية واللغوية بتركيا. والأذربيجانيون الذين يتكلمون التركية هم أحد الشعوب التركمانية التي نزحت من آسيـا الوسـطى وتفـرقت بين هضـاب الأنـاضول وسـهول القفقاس. لذلك فإن تركيا لا تستطيع أن تبقى بعيدة عن كل ما يجري في ايران، مهما أرادت وحاولت. وقد بدأ اليمين التركي المتعصب والمتطرف يرسم مقارنة بين ما يحدث للتركمان الأذربيجانيين وللأتراك القبارصة. صحيـح أن قرونـاً من التـاريـخ تفصل بين التركية التي يتحدث بها الأذربيجانيون في تبريز والتركية التي يتحدث بها الأتراك في استنبول ، لكنهـا في الحـالتـين تركيـة مفهومة. كذلك يفصل التاريخ بين تركمان أذربيجان وتركمان تركيا، العثمانية والأتاتوركية. انما الفاصل الأعظم هو أن التركمان الأذربيجانيين هم من الشيعة، بينما التركمان الأتراك من السنة. وهنا يقف حاجز التعاطف بين الفئتين.

وقـد تم الانفصال النهائي بين أتراك الأناضول وتركمان القفقاس وإيـران، الذين جمعهم الحكم العثمـاني لفتـرة قصـيرة سنة ١٩٢٣ بتأسيس الجمهورية التركية وتولي مصطفى كمال آتاتورك الحكم، الذي أعلن رسميـاً عن تخـلي تركيـا عن أية مطالب اقليمية خارج حدودها الحالية. وسقطت فكرة القومية الطورانية التي كانت تدعو كل الشعوب التي تتحدث التركية في إيران وآسيا الوسطى الى الوحدة السياسية تحت زعـامـة تركيـا الأنـاضـولية. ولم تبق إلا أصوات قليلة من التركمان الأذربيجـانيـين اللاجئـين من أذربيجان السوفياتية تدعو الى الوحدة الطورانيـة، الى أن سكتت نهـائيـاً سنـة ١٩٧٤ تحت وطأة التهـديد السوفياتي لتركيا، فخنقتها. وظلت الحركات التركمانية حركات هامشية في المجتمع التركي، كما ظل التركمان الشيعة لا يشكلون أكثر من خمسة بالمئة من الأكثرية السنية التركية.

وكـانت قضيـة الأقليات التركية في ايران من القضايا التي عكرت العـلاقـات الايرانية ـ التركية خلال سنوات الشاه، على الرغم من أن الحكـومـات التـركيـة المتعـاقبة لم تثر ولا في مرحلة من المراحل هذا المـوضوع. الى درجة أن الاتفاق الثقافي بين تركيا وإيران لم ينفذ من

الجانب الايراني، لأنه كان يدعو الى تعليم اللغة التركية في الجامعات الايرانية. وخاف الشاه ان يحيي تعليم التركية العواطف الانفصالية لدى ١٦ مليون ايراني يتكلمون التركية بشكل أو بآخر كلغة أم. فإلى جانب الاذربيجانيين الذين يتكلمون التركية هناك المجموعة التركمانية في «غمباد كافوس» الذين طالبوا في صيف ١٩٧٩ بالحكم الذاتي. لكن منذ سقوط الشاه وقيام ثورة الخميني الى اليوم ظلت تركيا بعيدة عن صراعات الخلافات الايرانية. فالأتراك الأذربيجانيون ما زالوا بعيدين عن الاهتمام التركي رسمياً وشعبياً وغير معروفين في الأوساط التركية. كذلك فان الأوضاع التركية الداخلية لن تشجع الأذربيجانيين على طلب المعونة والتأييد من تركيا. بالاضافة الى أن تأييد تركيا للأذربيجانيين قد يفتح الباب على مصراعيه أمام الستة ملايين كردي الذين يعيشون في شرق تركيا الى المطالبة بالانفصال والانضمام الى الحركة الكردية في ايران والعراق. لكن هذا الوضع من الحساسية بدرجة سيظل معها سيفاً مسلطاً فوق رأس البلدين، يهدد العلاقات بينهما الى زمن طويل قادم.

■ ■ ■

منذ أن جاءت الثورة الايرانية باسم الاسلام حاملة المصاحف والسيوف، ودول الخليج العربي تعيد النظر في المسلمات التي تعاملت بها إبان حكم الشاه. لقد أصبح الخليج منطقة مستهدفة ايرانياً. وتتذكر الخليج أن العراق هو البوابة الشمالية للجزيرة العربية، وأن عُمان هي البوابة الجنوبية. وتتذكر الخليج أيضاً أن التتار عندما غزوا الشرق جاءوا عن طريق البر الى العراق لا عن طريق البحر. وأنهم جاءوا أيضاً باسم الاسلام حاملين المصاحف والسيوف، إنما بعمائم مختلفة.

وكانت فارس منذ فجر التاريخ تتطلّع جنوباً نحو الجزيرة العربية. ولم تغزُ فارس ولم تحتل إلا شواطىء الجزيرة العربية في البحرين وعُمان واليمن، منذ ما قبل الإسلام حتى هزيمتها في معركة القادسية. وظلّ عرب الجزيرة يقاومون الغزو الفارسي والتوسع الفارسي منذ أيام الجاهلية حتى

استقرار الحكم الأموي في دمشق. وظلّت طموحات دولة الفرس التوسعية محصورة في حدودها الغربية والجنوبية. لم تتطلّع فارس قط نحو الشمال أو الشرق.

وجاءت ايران الحديثة وريثة أطماع فارس القديمة لتؤكد الواقع التاريخي. لقد تطلع الشاه رضا بهلوي (رضا خان) غرباً واقتطع عربستان واقتلعها من جذورها العربية وضمّها لامبراطوريته الايرانية. وجاء بعده إبنه الشاه محمد رضا بهلوي وتطلع جنوباً مطالباً بالبحرين ومقتطعاً الجزر العربية الثلاث، أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى، من أصحابها العرب. لم يتطلع أي منهما الى شبه القارة الهندية شرقاً، ولا إلى أفغانستان وجمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية شمالاً. كان محور الهيمنة الفارسية ـ الايرانية يدور دائماً حول القوس العربي الممتد من العراق شمالاً الى عمان واليمن جنوباً. وجاءت ثورة الخميني لتمسك بالدورة التاريخية نفسها من جديد.

لذلك كان لا يمكن تصدير الثورة الايرانية الا جنوباً. فالاتجاه نحو باكستان غرباً تقف بلوشستان في وجهه حائلا. والاتجاه نحو أفغانستان والجمهوريات السوفياتية الاسلامية شمالاً ليس ممكناً لأن اسلام الاتحاد السوفياتي أمر يصعب اختراقه من كابول الى طشقند حتى باكو، ولأن اختراق هذا الاسلام معناه الإخلال بموازين اللعبة الدولية، لذلك لم يكن هناك من سبيل أمام ثورة الخميني الايرانية إلا أن تتجه نحو العراق والبحرين والكويت والمنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية ودبي.

وإذا عدنا الى مناهل التاريخ أيضاً وجدنا أن وضع الحبشة (اثيوبيا) كان مماثلا. لقد كانت الحبشة تتجه دائماً نحو الجزيرة العربية، وتعبر البحر الأحمر وباب المندب لتصل الى اليمن وأطراف الحجاز منذ أيام الجاهلية حتى هزيمتها في صدر الاسلام. لم تتطلع الحبشة قط نحو شرق أفريقيا حيث يقتضي المنطق الجغرافي ذلك. كانت دائماً ذات علاقات متميزة مع بلدان جنوب الجزيرة العربية وبلدان حوض البحر الأحمر من مصر الى السودان الى الصومال.

مرت على قيام الثورة الايرانية حتى الآن عشر سنوات. وذكرى الثورة الايرانية التي قامت في ١١ شباط/ فبراير ١٩٧٩ لم تكن مقصورة على مؤيدي وأنصار آية الله الخميني ونظامه. فكل الذين ساهموا في قيام هذه الثـورة وخـططوا لهـا ونـاضلوا في سبيلها واعتبروا أنفسهم من أنصارها وطمحوا الى تحقيقها وتوقعوا نصيباً منها، تذكروها من مواقعهم المختلفـة. بعضهم من المنفى، وبعضهم من السجـون والمعتقـلات، وبعضهم الآخر من مخابئهم تحت الأرض أو تحت التعذيب. والبعض الأكثر من موقع السلطة في طهران أو في قُم.

السؤال: هل كانت الثورة منذ البداية ذات مضمون ديني بالشكل الذي آلت اليه؟

الجـواب: ان الثـورة اتخذت طابعاً دينياً للتعبير عن نفسها. كذلك اتخـذت من آية الله الخميني رمزاً لها إذ كان اسمه على الشفاه وفي الحناجر، وصوره على اللافتات والجدران. لقد وقف كل دعاة الثورة أياً كانت تحفظاتهم عليها فيما بعد، وراء زعامة الخميني في الأيام الأولى من الثورة معترفين بدوره الأساسي في تحريكها وفي انجاحها.

إلا أن الكثيرين من الذين أيدوها ومشوا في ركابها لم يكونوا يتوقعون إطلاقاً أن تؤدي هذه الثورة الى هذا النظام الذي يمثلها اليوم، والذي يعيشـه الايـرانيون. فالذي وعد ونادى به الخميني يوم كان منفياً في باريس كان أمراً وشيئاً مختلفين. لكن الخميني يوم كان في باريس، كان يطل على الثوار من موقع قوة يتعالى فوق تفاصيل أي نظام ستفرزه هذه الثورة مستقبلا.

ولم يكن الخميني، كمـا هو معـروف عنه، كثير الكلام، ولا واضح الالتزام، من خلال أحاديثه القليلة وتصريحاته الأقل وهو نزيل ضواحي العاصمة الفرنسية. لقد دفعت شهوة الثورة الكثيرين من الذين التفوا حوله في منفاه (وقد عادوا اليوم الى المنفى نفسه من جديد) الى تفسير أقواله وإيماءاته بالشكل الذي يناسبهم وبحسب تصوراتهم في الثورة التي يريدونها.

أمام هذه الحقائق التاريخية لا بد من استعراض الواقع الحقيقي للمنطقة من خلال الرؤيا المستقبلية التالية:

أولا: إن النظام الايراني والدعوة «لولاية الفقيه» ستستمران ولفترة طويلة حتى بعد زوال الخميني. فالصراع بين آيات الله في طهران لن يغير من منهجية النظام بتصدير الثورة الايرانية الى الخارج. وستجد دعوات آيات الله إقبالا مستجداً من خارج الحدود، كما كانت الدعوة الناصرية تجد إقبالا خارج مصر أيام مدّ القومية العربية وزعامة عبد الناصر.

إلا أن هناك من يعتقد أن مدّ الثورة الخمينية خارج إيران لا بد أن ينحسر من خلال ممارسات النظام الإيراني الحالي وبعد موت الخميني، لعدم وجود رجل في حجمه يرث الزعامة أو «الولاية»، كما انحسر مدّ الناصرية بعد موت جمال عبد الناصر، حين تقزمت زعامة خلفه. لذلك من الضروري التعايش والتكيف مع النظام الديني الثيوقراطي القائم في ايران. بل إن هناك مَنْ يذهب الى القول بأن تغيير النظام الايراني قد لا يكون لصالح المنطقة العربية. فقد يأتي مغامر جديد مجهول المبادىء والأهداف ليخلق حالة جديدة من الترقب والتهديد بتغيير المعادلة الدولية القائمة حالياً.

ثانياً: لم يعد بالإمكان الاتكال على الولايات المتحدة في حماية الخليج العربي لا من الخطر الايراني ولا من أي خطر خارجي آخر مهما كانت مصالح الولايات المتحدة مرتبطة بدوله، وليس العكس. لذلك لا بد أن تستخدم الولايات المتحدة اسرائيل جسراً للوصول الى إيران والتأثير عليها حتى لو ظلت أميركا «الشيطان الأعظم» بالنسبة للنظام الايراني. فليس هناك مفر من الصدام القائم بين القوميتين العربية والفارسية في ظل مفاهيم الصراع الدولي السائدة حالياً في المنطقة التي لا بد ان تدفع اسرائيل وايران للتعاون ضد المصلحة العربية أينما كانت.

ثالثاً: بعد مرور سنتين أو أكثر على انشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية، باتت هذه الدول اليوم أكثر تمسكاً بهذا المجلس من أي وقت مضى. فقد أضفت عليه التجارب والأحداث التي مرت على الخليج طوال الأشهر الأخيرة شيئاً من الواقعية والكثير من المناعة.

رابعاً: إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تفعل شيئاً بحرب الخليج، مهما كانت تصريحات المسؤولين الاميركيين تحمل نوايا هذا الفعل. ففي رأي معظم الخليجيين أن الباب مغلق في وجه أميركا.

لذلك لا بد أن نقرّ أن هناك صراعاً تأجل بين القوميتين: القومية العربية والقومية الفارسية. وعليه فإن الموقف المستقبلي الآخر هو الآتي:

أ: تدرك دول الخليج أنها لا تستطيع أن تواجه إيران عسكريا لا منفردة ولا مجتمعة. إن أقل من خمسة ملايين عربي خليجي على طول الساحل الممتد من الكويت الى مسقط لا يستطيعون مواجهة ٤٠ مليون فارسي ايراني. إن دول الخليج على غناها المادي ليست بامكانات ايران العسكرية والاقتصادية والبشرية. ناهيك بعامل التعصب الديني الذي يحرك هذه الجحافل البشرية الايرانية.

ب: لا سبيل الا اللجوء الى الديبلوماسية المرنة التي تتطلب في أحيان كثيرة الانحناء أمام رياح الخوف الهابّة عليها من كل صوب، حتى لا تجرفها في طريقها. لذلك فليس هناك رد على تهديدات آيات الله المتكررة في طهران، وتهديدات حجج الاسلام اليومية الا الصمود.

ج: سقوط كل الوساطات من اسلامية ودولية وحيادية حتى اشعار آخر.

د: لا أحد يعرف تماماً ماذا يريد الطرف الإيراني. بل ليس هناك مَنْ يعرف كيف ومع مَنْ يتحدث في ايران. فليست هناك علاقات ديبلوماسية حقيقية بين الدول العربية وايران، اكثر من شبه سفير هنا وقائم بأعمال هناك، لا يستطيع ان يصل الى باب وزارة في طهران، وإن وصل إليها فالقرار ليس فيها.

في القرن السابع الميلادي وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب، هزم العرب الفرس في معركة القادسية. ودخل الاسلام بلاد فارس دخولاً نهائيا لم يستطع الفرس الفكاك منه حتى الآن.

واليوم يحاول الفرس أن يصححوا مسار هزيمتهم بعد حوالي أربعة عشر قرناً بتحقيق انتصار على العرب. وكأنهم بذلك ينتقمون للتاريخ الأموي والعباسي معاً.

إن رياح الخوف التي تهب على العالم العربي اليوم قد دفعت دوله الى الاستعانة بالواقع في الحساب بين الممكن والمستحيل في قضية الصراع المصيري بين قوميتين وحضارتين. فالعدو لم يعد وهمياً. بل أصبح عدواً واضح الأهداف، علني المقاصد، معروف السلاح، لا يختبىء وراء أي ادعاء.

■ ■ ■

ان التاريخ لا ينسى لحظات العجز السياسي الذي تصاب به أمة من الأمم. فكما يذكر التاريخ لحظات الانتصار يذكر أيضاً لحظات الجنون السياسي التي تعصف بدولة ما، قبل أن يدون لحظات الهزيمة. إن ما يحدث في ايران لا بد وان يرمي بك في متاهات اللعبة السياسية التي لا يعرف أحد حتى الآن أصولها ولا قواعدها ولا مداها.

لكنها حتماً لن تكون خلواً من عرس جديد من أعراس الدم العديدة التي عرفناها. لقد عاد الخوف يلف العلاقات العربية ـ الايرانية من دون أن تدري كيف تتفاعل مع تدفق الأحداث عليها. لقد كان الخوف عند انتصار الثورة الايرانية وسقوط الشاه من أن تتسرب عدواها الى جيرانها العـرب، فتخلق حالة من اللااستقـرار عندهم. وعندما انفتحت الثورة الايرانية على العالم العربي وقضاياه تحول هذا الخوف الى تفاؤل بإقامة «تفـاهم» على الأقل، هو الأول من نوعه بين العرب والفرس منذ سقوط الدولة العباسية قبل حوالي الف سنة. ومات هذا الأمل بعامل الصدمة المفاجئة عندما تعثرت مسيرة الثورة الايرانية باندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية. فالثورات حبلى دائماً بالمفاجآت. والمفاجأة عادة لا تعلن عن نفسها ولا عن مكانها وزمانها.

وتحتار وسط لجة هذه الأسئلة عن ماذا يحدث هذه الأيام في ايران وسط صحراء من الصمت الجاهل. الجهل بما يجري. والجهل بما يُعَدّ. والجهل بما قد يحدث.

ايران: القومية والدين بالأرقام

القومية	النسبة	العدد	المذهب
١ـ الفرس	٦٣٪	١٨,٠٠٠,٠٠٠	شيعة
٢ـ التركمان	٢٠٪	٥,٦٠٠,٠٠٠	سنّة
٣ـ العرب	٧٪	٢,٢٠٠,٠٠٠	سنّة
٤ـ الأكراد	٦٪	١,٧٠٠,٠٠٠	سنّة
٥ـ البلوش	٢٪	٦٤٠,٠٠٠	سنّة
٦ـ جماعات أخرى	٢٪	٦٤٠,٠٠٠	—

١ـ الايرانيون من أصل فارسي: هم سكان المناطق الوسطى من الشمال حتى الجنوب ومعظمهم من الشيعة.

٢ـ التركمان: يعيشون في المناطق الشمالية الغربية في أذربيجان والجهات الشمالية الشرقية في خراسان ومعظمهم من السُّنة.

٣ـ العرب: يسكنون الأجزاء الجنوبية الغربية والسواحل المواجهة لسواحل الخليج العربي ومعظمهم من السُّنة عدا عرب الأحواز الذين يبلغ عددهم حوالي ٣٨٠ ألفاً ومعظمهم من الشيعة.

٤ـ الأكراد: يسكنون كردستان واقليم اللور، وهم كقومية موزعون بين ايران وتركيا والعراق وسورية. وفي الحرب العالمية الثانية عند دخول الجيوش البريطانية والسوفياتية ايران سنة ١٩٤١، سيطر السوفيات على القسم الشمالي من أذربيجان وأسسوا بين مدينة تبريز في الشمال ومدينة كرمنشاه في الجنوب «جمهورية مهاباد الكردية» التي تعتبر أول دولة شيوعية في الشرق الأوسط، ومعظمهم من السنة.

٥ـ البلوش: يعيشون في الجنوب الشرقي من ايران على حدود باكستان وأفغانستان، ومعظمهم من السنة ويتبعون نظام السردارات القبلي وهم بمثابة زعماء قبليين، ما عدا البلوش من سكان منطقة سيستان الذين يبلغ عددهم حوالي ١٠٠ ألف فهم من الشيعة الذين يتبعون آيات الله من رجال الدين على الطريقة الفارسية.

٦ـ الجماعات الأخرى: مؤلفة من مسيحيين ـ أرمن ـ اليهود ـ النساطرة ـ الزرادشتيين ـ البهائيين. وقد هاجرت أعداد منهم الى خارج ايران.

٧ـ يشكل المسلمون ٩٨٪ من مجموع السكان وينتمون الى مذهبين: الشيعة ٦٢٪، والسُّنة ٣٦٪ و٢٪ من غير المسلمين.

الفَصلُ الرّابع

تركيّا ـ باكستان: فجوة في جِدار التّاريخ

الأتراك قادمون.

الى أين؟

الى حدود الامبراطورية العثمانية وتخومها التي يعرفونها جيداً.

هذه هي الصيحة الجديدة التي بدأ الناس يسمعونها في أرجاء العالم العربي هذه الأيام، ويكادون لا يصدقونها.

الفرس قادمون.

قبل عشر سنوات، كانت هي الصيحة المشابهة التي رفض العرب أن يعترفوا بواقعها وأهميتها واحتمالاتها. ولما هدد الفرس حدود الجزيرة العربية الشمالية واندلعت الحرب العراقية ـ الايرانية، أدرك الناس أن التاريخ سلسلة متصلة قد تنساها الشعوب والدول فترات طويلة، غير أنها سرعان ما تعود الى البروز، وكأن هوة الأزمنة والقرون لم تردمها عشرات أو مئات السنين، واتضح لأكثر المستجدين بعلم السياسة أن ليس هناك تخطيط سياسي ثابت بمعزل عن العلاقات التاريخية ورواسبها، وبعيداً عن الواقع الجغرافي وتبعاته.

لقد وفر استمرار الحرب العراقية ـ الايرانية لمدة ثماني سنوات حتى الآن الفرصة لتركيا بالعودة الى الشرق الأوسط من البوابة التاريخية ذاتها التي أغلقت في وجهها عند انهيار الامبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى. ولكن تركيا غير ايران. فخمسة قرون من الحكم التركي والسلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية لم يمحها نصف قرن من التتريك الأتاتوركي، ولا من التغريب الأميركي، ولا من التحالف الأطلسي. والطعم العثماني الإسلامي ما زال يسيل لعاب الأتراك منذ ان انكفأ مصطفى كمال أتاتورك في «جمهوريته الحديثة» الى آسيا الصغرى.

خمسمئة سنة من أصل ألف وأربعمئة سنة من التاريخ العربي الاسلامي ليست بسيطة حتى تنسى خلال ستين سنة، على الرغم من مرور حربين عالميتين، وانفكاك عقد الامبراطورية العثمانية، وزوال الخلافة الاسلامية، ونشوء الكيانات الاستقلالية العربية، وقيام دولة اسرائيل. ستون سنة أو تقل ليست شيئاً في حساب التاريخ، وليست شيئاً أيضاً في حساب الطموحات التاريخية التي لا تذوي مع الزمن، وليست شيئاً اطلاقاً في تخطيط الاستراتيجية المستقبلية.

وإذا كانت تركيا غير إيران، فذلك لأنها كانت جزءاً متداخلاً في الكيان العربي الاسلامي، وفي الجغرافية السياسية العربية، وفي الحركات الوطنية والقومية، وفي الإرث الاسلامي العربي التاريخي والسياسي. ايران - فارس كانت امبراطورية ذات حضارة عريضة قبل الاسلام، وكان امتدادها الجغرافي والسياسي كله قبل وصول الاسلام. وعندما دخل الاسلام بلاد فارس كان اسلام الأقلية التي لم تستطع ان تتوسع خارج حدودها لتصل الى اسلام الأكثرية. حتى عند قيام دول شيعية عبر التاريخ الاسلامي الحافل، كدولة الفاطميين في مصر، ظل النفوذ الفارسي محدوداً، والحضور الفارسي وتأثيره بعيدين. بينما استطاع الأتراك - بحكم كونهم ينتمون الى أكثرية الاسلام السُّنية، ولم يكونوا ذوي حضارة أو امبراطورية قبل الاسلام - أن يصل حضورهم الى كل زاوية من زوايا العالم العربي والاسلامي، وأن يكون هذا الوجود مقبولا دينياً، وإن رفض في ما بعد عند نشوء القوميات سياسياً.

إنما كان ذلك فقط محصوراً في حدود الخمسين سنة الأخيرة من حياة الامبراطورية العثمانية. فالاسلام هزم فارس وجازاها. وظل الفرس الى اليوم يحملون ضغينة هذه الهزيمة، أما الأتراك فجاءوا الى الاسلام ومع الاسلام، فوحدهم ليسيطروا ويحكموا شعوب الاسلام الكثيرة التي كان يشكل غالبيتها العرب. فهزيمة العرب للفرس كانت هزيمة حضارية دينية. أما هزيمة العرب للأتراك فكانت هزيمة سياسية. وظل الأتراك الى اليوم يحملون هم أيضاً ضغينة هذه الهزيمة، إذ أن الهزيمة السياسية

تكون عادة أخف وطأة من الهزيمة الحضارية الدينية، وبالتالي يكون الرد عليها أسهل، وخاصة إذا كان العامل الديني حليفاً فيها.

لكن العنصر الأساسي في السياسة التركية الكمالية خلال السنوات الأولى من حياة الدولة التركية الناشئة ظل ذلك الصراع الذي خاضته في سبيل امتلاك ولاية الموصل القديمة. وكانت لهذه الولاية أهميتها الخاصة لما تنطوي عليه من ثروة بترولية لم تكن قد استغلت بعد. من هنا طالبت بريطانيا أن تضم الى العراق الذي وضع تحت انتدابها، في حين طالبت بها تركيا على أساس أن كثرة سكانها هم من الأكراد شأن الولايات المحايدة في تركيا. وكان صلح لوزان قد أرجأ تسوية هذه المشكلة تسوية نهائية، على أن تحال الى عصبة الأمم إذا تعذر الوصول الى اتفاق بشأنها. وبعد مطالبات وتحقيقات طويلة اعتبرت ولاية الموصل في ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥ جزءاً من أراضي العراق الواقعة تحت الانتداب البريطاني. وفي اتفاق أنقره الموقع في ٥ تموز/ يوليو ١٩٢٦ نزلت تركيا عند هذا القرار بعد أن حصلت على تأكيدات بريطانية بإشراكها بنسبة ١٠ بالمئة من مشروعات استثمار البترول المزمع تنفيذها في المستقبل.

وكان على تركيا أن تسوي مع جارتها الجنوبية سورية الخاضعة للانتداب الفرنسي في حينه مشكلة لواء الاسكندورنة، حيث يعيش السوريون مع أقلية تركية. وفي معاهدة عقدت مع فرنسا في ٢٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٢١ اتفق الجانبان التركي والفرنسي على أن تكون لهذا السنجق أو هذا اللواء ادارته الخاصة، وعلى جعل التركية اللغة الرسمية فيه وعدم التعرض لحياة الأتراك الثقافية. بيد أن هذه المشكلة التي أثارت الرأي العام التركي والعربي معاً لم تسوَّ بين الدولتين إلا بمعاهدة صدقتها عصبة الأمم في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٧. وقد ضمنت هذه المعاهدة للاسكندرون استقلالها التام في الادارة الداخلية، ولم تربطها بسورية إلا في ما يتصل بالسياسة الخارجية، الى أن انسلخت نهائياً عن سورية وضمت الى تركيا سنة ١٩٢٨.

إذا أراد عرب اليوم أن يفهموا أكثر أسباب التحرك التركي الجديد

باتجاه المشرق العربي ودوافعه السياسية والقومية، فلا بد من التذكير ببعض من هذا التاريخ، حتى تكتمل الصورة عندهم، وحتى يكون التقييم حقيقياً على الواقع الأرضي. والتاريخ هذا ليس تاريخاً قديماً إنما تاريخ لا يتجاوز عمره الخمسين أو الستين سنة، وما زال الكثيرون من معاصريه أحياء حتى الآن.

■ ■ ■

في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢ قام وزير الدفاع الأميركي كاسبار واينبرغر بزيارة لأنقرة توصل خلالها مع نظيره التركي وزير الدفاع خلوق بايولكن، الى تفاهم حول انشاء قواعد عسكرية اميركية لقوات التدخل السريع في شرق تركيا. بالاضافة الى قيام مجلس عسكري مشترك بين الدولتين. وخرج واينبرغر من أنقره وقد حقق مطلباً ثالثاً وهو نقل القوات التركية في جنوب شرق تركيا، وعددها حوالي المئة ألف جندي، من مواجهة اليونان وبحر إيجه، الى الجنوب الغربي، ومواجهة العراق وايران. فالقوات التركية المعروفة بالجيش الإيجي قد عكرت العلاقات التركية ـ اليونانية وزادت من خلافات البلدين مما عطل الخطط الأميركية لتقوية دفاع الحلف الأطلسي في المنطقة.

لكن الأتراك قبضوا ثمن موافقتهم على المطالب الأميركية. فبالإضافة الى زيادة المساعدات العسكرية الأميركية الى حدود ٤٦٥ مليون دولار للتسلح و٣٥٠ مليون دولار كقروض اقتصادية لعام ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣، طلب الأتراك من الولايات المتحدة أنه إذا أراد الأميركيون التحرك والعمل في الشرق الأوسط من قواعد في الأراضي التركية، فعليها أن تعد ـ أي اميركا ـ بالدفاع عن الحدود التركية مع الاتحاد السوفياتي وسورية والعراق وايران، مع ضمانات بالتدخل العسكري الأميركي المباشر إذا دعت الحاجة الى ذلك. فالعسكر التركي الحاكم في أنقرة قلق من إمكانية رد سوفياتي إذا تحرك الأميركيون باتجاه ايران أو العراق أو سورية من قواعد في تركيا.

إن المخاوف التركية هذه ليست جديدة على الأميركيين. فمن قبل أن يستولي الجنرال كنعان أفرين والعسكر التركي على الحكم سنة ١٩٨٠، كشفت الحكومة الايرانية وثائق سرية عند احتلالها السفارة الأميركية في طهران تعود الى سنة ١٩٧٨. وتشير هذه الوثائق الى سؤال موجه من حكومة انقرة الى واشنطن عما ينوي الأميركيون فعله تجاه التهديدات المحتملة التي يمكن أن تواجهها تركيا في حال سقوط الشاه. وكان الجواب الأميركي أن التدخل الأميركي بالنيابة عن تركيا مضمون بموجب الرسائل السرية المتبادلة بين البلدين سنة ١٩٥٩ تحت غطاء حلف المعاهدة المركزية «السنتو». وأضاف الجواب الأميركي أن هذه الضمانة ما زالت سارية المفعول، على الرغم من حل حلف السنتو. لكن ما كانت تريده أنقره من واشنطن هو معرفة مدى الالتزام الأميركي في دعم العسكر التركي والى أي حد.

لكن المصادر الأميركية تميل الى السيناريو الممكن حدوثه. وهو التالي:

في حال وقوع تغيير في النظام العراقي فإنه سيؤدي الى تحالف العراق مع سورية التي بدورها ستعرض وساطتها مع ايران لوقف الحرب العراقية ـ الايرانية والتوصل الى تسوية سلمية. لكن من الممكن زعزعة الوضع في سورية عن طريق تحريض اسرائيل للتدخل ضدها. لذلك ليس من المتوقع أن يتدخل الاتحاد السوفياتي ضد تركيا أو العراق، ما دامت القواعد الأميركية في الأراضي التركية وقوات التدخل السريع فيها، والأسطول السادس مرابطاً في مياه البحر المتوسط والأسطول السابع في مياه بحر العرب.

والافتراض الأميركي في هذا السيناريو هو أن الاتحاد السوفياتي غير قادر سياسياً وعسكرياً على التدخل لسببين:

الأول: انشغاله عسكرياً وسياسياً في بولندا وافغانستان.

الثاني: عدم قدرة زعماء الكرملين الحاليين على اتخاذ قرار بالتدخل لانشغالهم بصراعاتهم الداخلية مهما بدا أن الوضع قد تغير في عهد يوري اندروبوف. ومن ثم فإن الاتحاد السوفياتي لن يحتاج الى التدخل بموجب هذا السيناريو ما دامت القوات التركية لا تهدد مباشرة الاتحاد

السوفياتي أو ايران أو حتى العراق. لذلك سيبقى السوفيات مترددين الى أن تفوتهم الفرصة.

الا ان هناك نقطة ما زالت مستعصية في التفاهم الأميركي ـ التركي، وهي إلحاح العسكر التركي الحاكم على الادارة الأميركية الحالية لإعطائها تفويضاً باعادة احتلال الموصل وكركوك في حال وقوع أي اضطراب داخلي في العراق. لكن حتى الآن ما زالت واشنطن متحفظة في هذا الجزء من السيناريو.

لذلك يبدو مضحكاً اليوم التباطؤ الأميركي ـ التركي ضد الأكراد، وهي التي سلحت الأكراد ضد العراق منذ ١٩٦٠ الى نهاية الحرب العراقية ـ الكردية سنة ١٩٧٥ بالتعاون مع شاه ايران واسرائيل. ويبدو مبكياً أيضاً أن أعداء الأمس وحلفاء أميركا التقليديين اليوم، الأرمن والأكراد، لن يجدوا من الولايات المتحدة أي دعم أو عون ضد الحليف الأهم والأقوى والأبقى: تركيا.

■ ■ ■

فمما لا شك فيه أن تركيا اليوم تتشوق الى دور مشرقي من خلال وجود دولتين توسعيتين وقويتين طامحتين في المنطقة، هما إيران واسرائيل. فتركيا المتفرنجة، المتغربة، التي فشلت في أن تجد لنفسها دوراً غربياً أوروبياً حقيقياً طوال ثلث القرن الأخير، والتي فشلت في إقناع أوروبا والأوروبيين أنها جزء منها ومنهم، قد تجد اليوم في ظل الظروف الراهنة التي يمر بها المشرق العربي، فرصتها الذهبية وقد اكتملت الدورة التاريخية التي بدأت بنهاية الحرب الكبرى وانتهت بالحرب العربية ـ الاسرائيلية الخامسة، والحرب العراقية ـ الايرانية الأولى. ومعنى هذا سقوط سياسة مصطفى كمال أتاتورك الداعية الى انكفاء تركيا الى الداخل، والتعامل مع اوروبا، والابتعاد عن المشرق العربي والعالم الاسلامي.

لكن التساؤل عن الدور التركي الجديد لا بد ان يبدأ من الخطر الذي تشكله تركيا على الجزيرة العربية وعلى العراق بالذات.

لذلك لا بد هنـا من التـوقف قليلاً عند بعض المعلومات الأساسية والخطيرة عن العلاقات التركية ـ الأميركية منذ مجيء الحكم العسكري الى تركيا بقيادة كنعان أفرين سنة ١٩٨٠. هذه المعلومات التي لا بد أن تلقي بعض الضـوء على الدور التركي الجديد في الشرق الأوسط الذي تهيئه لها الولايات المتحدة.

إن قوات التـدخـل السريع الأميركية التي انشئت لإعطاء الولايات المتحـدة مزيداً من القوة العسكرية للتدخل في الخليج العربي وحماية منابع النفط ضد احتمال أي هجوم سوفياتي أو تخريب داخلي، قد أقامت قواعد عسكرية وقيادة سرية لها شرقي تركيا. وقد تم الكشف عن هذه القواعد العسكرية الأميركية الجديدة شرق تركيا في أيار/ مايو ١٩٨٢، عندما تحطمت طائرة عسكرية اميركية وقتل فيها ٢٧ رسمياً اميركياً كانوا يعملون في بناء هذه القواعد. وكان قيام هذه القواعد جزءاً من مخطط سري تركي ـ أميركي مشترك.

واذا كان الهدف الأميركي من قيام هذه القواعد في تركيا هي أن تكون قوات التدخل السريع على مقربة من الخليج العربي، فإن الهدف التركي هو أكثر طموحاً من ذلك. ونظام كنعان أفرين العسكري قد خلق مجموعة من الضباط يشكلون نواة شبيهة بـ «تركيا الفتاة» التي برزت في نهاية العهـد العثمـاني والتي كانت أساس جمعية «الاتحاد والترقي» التي خلعت السلطان عبد الحميد، وبدأت موجة التتريك في العالم العربي، وحاربت قيام الحركات الوطنية والقومية، وتحالفت مع المانيا.

وطموحات ضباط «تركيا الفتاة» الجدد، إذا وافق البيت الأبيض على هذه السياسة وسارت الأمور بموجب الخطة المعدة، هو أن تسير تركيا بجيوشها عبر الحدود العراقية وتحتل الموصل والمنطقة الكردية في الشمال العراقي تحت ستار أن الأكراد يقومون بعمليات تخريبية ضد تركيا عبر الحـدود، مستعيدين بذلك ما أخذته بريطانيا في الحرب العالمية الأولى وأعطته للعراق نتيجة لخسارة الأتراك هذه الحرب.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تفكر فيها أنقرة وواشنطن بخطة كهذه. ففي ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨، عند قيام الثورة العراقية وسقوط

الملكية في العراق، أرسلت إدارة الرئيس ايزنهاور «المارينز» الأميركيين الى لبنان، وأرسلت حكومة ماكميلان البريطانية جنود المظليين الى الأردن، وبدأ الجيش التركي زحفه نحو شمالي العراق. ولم يوقف تقدم الأتراك نحو الموصل سوى أن واشنطن غيّرت رأيها في اللحظة الأخيرة.

ويعتقد النظام التركي اليوم أن استمرار الحرب العراقية ـ الايرانية يوفر له هذه الفرصة التي ضاعت عام ١٩٥٨، خاصة أن ادارة الرئيس ريغان الحالية قد أعلنت أنها تتوقع أن «تعود العلاقات التركية ـ الأميركية الى ما كانت عليه من ازدهار في فترة الخمسينات». وهي المناسبة التي كان ينتظرها العسكر الأتراك ومعهم الأميركيون الذين يعتقدون أن من الممكن إعادة عقارب الساعة الى الوراء، عندما كانت ايران والعراق جزءاً من التحالف الغربي، وعندما كان العالم العربي خاضعاً كلياً لحماية الغرب.

منذ أن تسلم الجيش الحكم في تركيا في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ والصراع الدائر بين القياديين العسكريين في أنقرة هو حول مدى الاستفادة من استمرار الحرب العراقية ـ الايرانية لاستعادة «الأراضي التركية». وكان أكبر دعاة التدخل الجنرال حيدر سلتيك الأمين العام لمجلس الثورة العسكري وصاحب الطموحات العثمانية التقليدية. وظل الجنرال سلتيك أشهراً طويلة وراء الأحاديث الدائرة في العاصمة التركية عن احتمالات التدخل التركي في شمال العراق تحت ستار تأييد مطالب الأكراد الاستقلالية. الى أن أقصاه رئيس الجمهورية كنعان أفرين الى منصب آخر لكثرة ما أصابه من حرج نتيجة كلامه المتواصل. ويعتقد الجنرال سلتيك أن تركيا تستطيع بضربة واحدة أن تستعيد أراضيها السابقة وتحتل آبار النفط في كركوك، وبذلك ينقذ الاقتصاد التركي الضعيف والمتدهور منذ عشرات السنين، وتعطي الأكراد العراقيين والأتراك منهم، حكماً ذاتياً تحت إشرافها بحيث تحل مشكلة الأكراد الأتراك المتفاقمة داخل تركيا، وتمحي عن نفسها السمعة التاريخية السيئة بأنها تضطهد العناصر القومية والعناصر غير التركية.

وتلقى هذه الخطة تأييد الولايات المتحدة واسرائيل التي لها تاريخ

طويل في التعامل مع تركيا ومع العناصر الكردية المناهضة للعراق. لكن كما يبدو أن واشنطن تريد أن تبعد اسرائيل عن هذه الخطة مؤخراً حتى لا تسبب في إحراج أطرافها، ولتجعلها أكثر قبولاً لدى الأكثرية العربية.

إذا كان هذا السيناريو قائماً وموجوداً فعلا في أدراج الإدارة الأميركية والحكومة التركية، والذي تؤكده وثائق الكونغرس الأميركي،المنشورةمنها وغير المنشورة، وبموجب الشهادة التي أدلى بها ريتشارد برلي مساعد وزير الدفاع الأميركي لشؤون سياسة الأمن القومي أمام لجنة الدفاع في الكونغرس الأميركي في ١٥ نيسان/ ابريل ١٩٨٢،فإن الدور التركي الذي لا بد أن يصطدم بإسرائيل، إلا إذا كانت واشنطن تريد تحجيم الدور الاسرائيلي في المنطقة عن طريق «تكويع» الدور التركي. واذا كانت اسرائيل دولة عسكرية معتدة بنفسها وذات امتيازات أميركية حربية لا حدود لها، فتركيا دولة عسكرية أيضاً ذات تاريخ عسكري حافل، وذات امتيـازات حربية أطلسية لا حدود لها أيضاً. لكن الفارق العظيم بين الدولتين ـ وهو الفارق الأساسي الذي يرجح الكفة في رأي واشنطن ـ أن اسرائيل دولة يهودية غريبة مزروعة في المنطقة، بينما تركيا دولة اسلامية هي جزء من تاريخ وتراث هذه المنطقة. وهنا تكمن خطورة اللعبة.

قد يكون الدور التركي موجهاً في هذه المرحلة ضد ايران، في محاولة لردعها عن أية طموحات خليجية، أو منعها من توسيع رقعة الحرب مع العـراق. لكن يبقى هذا دوراً مرحليـاً ومـؤقتـاً. فالخـطر هو أن يكون الأميركيون يريدون أن يمسكوا اليوم بسيف السلطان العثماني الطويل، وإن تقاعد، ويحاربوا بجيش «تركيا الفتاة» المسلم، وإن أصبح أطلسياً، نفوذ قيصر روسيا البعيد وقوات الاتحاد السوفياتي الملحدة، إنما على حساب أرض عربية لم تعد ملكاً للامبراطورية العثمانية ولا لخلفائها الجدد.

إلا أن السينـاريو الأخطر الذي تفكر فيه الولايات المتحدة بإعطاء تركيا دوراً في سياسة الشرق الأوسط هو أن توفر الفرصة لتركيا بأن تحل محلها عسكرياً في العالم العربي. فبعد بناء القواعد العسكرية الأميركية لقوات التدخل السريع في غرب تركيا، تستطيع القوات الأميركية الدفاع

عن حدود تركيا ضد الخطر السوفياتي، وبالتالي يشكل وجودها رادعاً أهم بالنسبة لموسكو. فهذا الأمر يحرر القوات التركية من حماية الحدود السوفياتية ويوفر لها مجال التحرك جنوباً نحو الجزيرة العربية، في حال تعرض دول الخليج العربي لأي خطر سوفياتي أو ايراني، أو حتى قلاقل داخلية قد تهدد الأنظمة القائمة هناك. فبدلا من ارسال قوات اميركية «ملحدة» الى أراض اسلامية محرم أكثرها على غير المسلمين، ترسل اميركا قوات تركية مسلمة سنّية الى ارض تعرفها جيداً، وسبق لها ان خبرتها عشرات السنين. فالقوات التركية ظلت في الحجاز وفي اليمن حتى سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨.

وما دامت مصر غائبة عن العالم العربي، ودورها العربي والاسلامي معطلاً لسنوات قادمة، تقوم تركيا، الدولة المسلمة الأولى، والتي حوت آخر خلافة اسلامية في التاريخ، بالدفاع عن أراض اسلامية مهما كانت علاقاتها الاستخبارية باسرائيل، ومصالحها الاستراتيجية معها. وبذلك يكون المسلمون هم الذين يدافعون عن المسلمين. وتبقى اميركا بعيدة عن اثارة العواطف الاسلامية والعربية ضدها بقدر ما تبقى بعيدة عن المواجهة العسكرية والاحتكاك المباشر مع الاتحاد السوفياتي... فتحقق بذلك أطماع تركيا العثمانية التاريخية، بقدر ما تحقق سياستها، من دون أن يخدش أميركي واحد.

■ ■ ■

أمام هذه الاحتمالات كلها في مستقبل الأيام اللاحقة ، ووراء هذه التراكمات التاريخية العاتية، تدخل تركيا ساحة الشرق الأوسط من باب الأقليات الأرمنية والكردية من جهة، ومن باب الاسلام الذي أغلقته وادارت ظهرها إليه قبل ستين سنة من جهة ثانية. وعندما تفتح أميركا هذه الأبواب لها بعد أن علاها الصدأ طوال نصف قرن، تكون دورة التاريخ قد اكتملت بأن تدير تركيا وجهها نحو الشرق، بعد أن تعبت من احتقار وإهمال الغرب لها.

عندئذ يكون الأتراك قد وصلوا.

أما الآن فما زالوا قادمين.

إذا كان الأتراك قادمين، فإن الباكستانيين قد وصلوا. ولا يعني العالم العربي الغارق بمشاكل لا حصر لها، من الحرب اللبنانية الى الحرب الفلسطينية الى الحرب العراقية ـ الايرانية، حتى حرب الصحراء المغربية وحرب تشاد، ما تعاني منه باكستان اليوم، لولا أن ظروف باكستان المتفاقمة ستولد انعكاسات مباشرة على أوضاعه وعلى أمنه وعلى مستقبل كياناته، وعلى الأخص دول الخليج العربي.

إذا كان الأتراك قادمين، والفرس صاروا داخل الأسوار، فالباكستانيون قد أصبحوا منذ سنوات حراساً للأبواب التي يخاف أصحابها من أن تخترقها ايران أو الاتحاد السوفياتي. فالحراس الباكستانيون لا يؤتمن لهم ما دامت مفاتيح الأبواب الخليجية ليست معهم، وربما كان هناك قسم منها في أنقرة أو واشنطن. فالتنسيق الباكستاني ـ التركي ـ الأميركي في الجناح الشرقي للعالم العربي من عُمان الى العراق داخل القوس الممتد من باكستان الى أفغانستان مروراً بايران حتى تركيا الموازي لحدود الاتحاد السوفياتي، هو بيت القصيد.

العالم العربي الذي شغل في السنوات العشر الأخيرة بمجموعة حروب لم يعرفها في تاريخه المعاصر ولم تعرفها دولة منذ أن نالت استقلالها، قد انحسرت حدود آفاقه السياسية والعسكرية، بحيث لم يعد يميز الشجر من الغابة. فضاقت معالم استراتيجيته وتقلصت تطلّعاته الى داخل كياناته. هذا العالم العربي عليه أن ينظر الى أهداف باكستان أبعد من أنفه المجدوع في الحروب الصغيرة التي تدور داخله.

ما يحدث في باكستان أمر يعني كل دولة عربية، وبالذات كل دولة خليجية. بل أن تأثير ما يحدث في باكستان على الجزيرة العربية ودولها، لهو أكثر أهمية من أحداث ايران من قبل سقوط الشاه وبعد قيام الثورة وما جرّت من نتائج على الخليج العربي. وكما هزت الاضطرابات الإيرانية دول الخليج وغيرت الكثير من المسلمات التي كانت سائدة في المنطقة، فإن أحداث باكستان أكثر منها خطورة.

كيف؟ ولماذا؟

باكستان هي الدولة غير العربية الوحيدة التي تملك وجوداً عسكرياً فعلياً وحقيقياً داخل عدد كبير من دول الخليج العربي. مدربون، خبراء، مستشـارون، ضباط، جنود، خدم، مرتزقة، انكشاريون. كل هذا وذلك وأكثـر. إنمـا الأهم من ذلك كله أن باكستـان هي العـامـود الفقـري للاستـراتيجيـة العسكـرية الأميركية في منطقة الجزيرة العربية وخط الدفاع العسكري الأول مع الاتحاد السوفياتي لا أفغانستان. والنظام الباكستاني بتركيبه الحالي هو الدعامة الأساسية للاستراتيجية الغربية في آسيا الوسطى. والجسر الباكستاني ـ التركي، الذي أخذ يدعم مؤخراً عسكـريـاً عن طريق تبـادل الخبـرات العسكرية والتنسيق المشترك، وسياسياً عن طريق محاولة ضياء الحق تقليد التجربة السياسية التركية لكنعان أفرين الحاكم التركي في أنقرة اليوم.

ضيـاء الحق العسكـري الباكستاني الفظ أطاح عن طريق انقلاب عسكري بحكم ذو الفقار علي بوتو السياسي ـ الحزبي ـ الشعبي ـ البرلماني.

كنعان أفرين ، العسكري التركي الأكثر فظاظة، أطاح أيضاً عن طريق انقـلاب عسكـري بحكم سليمـان ديمـيريـل السيـاسي ـ الحـزبي ـ الشعبي ـ البرلماني. وكلا الانقلابين قاما تحت شعار القضاء على الفوضى السياسية والخوف من تغلغل اليسار، وبرضى الولايات المتحدة.

الانقلاب التركي، بحكم قربه من اوروبا وعضويته في حلف الأطلسي، كان أسرع الى اختراع نوع من الديمقراطية المفصلة على قياسه وقيام أحزاب لا تتألف الا بمشيئته وإجراء انتخابات لا يفوز فيها إلا من له حظوة عند العسكر.

وعـلى الرغم من ذلك ظلت الديمقراطية التركية المصطنعة مرفوضة حتى الآن من شركاء تركيا الأوروبيين ـ الأطلسيين ذوي الديمقراطيات الأكثـر عراقـة وأصـالة. أمـا باكستـان، وبعـد أن خذل ضياء الحق البـاكستانيين بباطل وعوده سنة بعد سنة بعودة الديمقراطية، قرر في أيـامه الأخيرة أن يستعير التجربة التركية في تشكيل الأحزاب وإجراء

الانتخابات وتقنين الديمقراطية، في محاولة لوقف الثورة الشعبية التي انفجرت في وجهه وأخذت تهدد نظامه. وإذا بالمحاولة «الضيائية» الباكستانية تجربة حق أريد بها باطل.

■ ■ ■

عندما بدأ نظام الجنرال محمد ضياء الحق تجربة إجراء انتخابات محلية تمهيداً لانتخابات برلمانية بعد أشهر أو سنوات، وبعد سلسلة وعود كاذبة استمرت ست سنوات بحكم عسكري تعسفي وأحكام عرفية جائرة، تحولت المعركة الانتخابية الى معارك ضارية بين السُّنة والشيعة في مقاطعة السند وفي ضواحي عاصمتها كراتشي. هذه المعارك التي لم تكن تقع قبل أن يحوّل ضياء الحق باكستان الى دولة اسلامية وجمهورية ثورية فرضها فرضاً محاولاً الاستفادة من المد الثوري الاسلامي الذي خلقته ايران في المنطقة، والاسلام التقليدي المحافظ الذي تدعو أليه بعض الدول العربية.

وخلق ضياء الحق بأنظمته الاسلامية الجديدة وأسلوب تطبيقها حالة عداء نادرة بين السنة والشيعة في باكستان، أين منها حالة العداء التي نشأت بين الهندوس والمسلمين عند تقسيم شبه القارة الهندية عند الاستقلال سنة ١٩٤٦، وقيام الكيان الباكستاني بجناحيه الغربي والشرقي، الذي أصبح في ما بعد بنغلادش بعد حرب خاسرة قام بها جنرالات من طراز ضياء الحق.

فجأة وسط أعنف ما عرفته باكستان من اضطرابات في عهد الجنرال ضياء الحق، وصل وزير الدفاع الأميركي كاسبار واينبرغر الى العاصمة الباكستانية اسلام آباد في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٣. واستقبلته جماهير الشعب الباكستاني الغاضب بيافطات: «يسقط الاستعمار الأميركي، تسقط الصهيونية» بعد أن أحرقت العلم الأميركي أمامه. واعتبر السياسيون والمثقفون والحزبيون الداعون لعودة الديمقراطية البرلمانية الى باكستان زيارة وزير الدفاع الأميركي في هذا الوقت بالذات

«لتـأكيـد تأييد ادارة ريغان لنظام ضياء الحق ودعم موقفه ضد رغبة شعب باكستان». وحذر بيان «حركة إعادة الديمقراطية» من أن استمرار الدعم الأميركي لنظام ضياء الحق الديكتاتوري في باكستان سيؤدي الى نفس المصير الذي وصل إليه شاه ايران ونظامه ووصلت إليه الولايات المتحدة عند قيام الثورة الايرانية.

وقـد تجسم التـأييـد والدعم الأمـيركي لنظام ضياء الحق بزيادة المساعدات الأميركية العسكرية والاقتصادية لباكستان.

وقـد تمت هذه الزيادة تحت غطاء رغبة الولايات المتحدة بأن ترى باكستـان معقـلاً للغـرب يقف في وجـه الاتحاد السوفياتي بعد غزوه لأفغـانستان. وقد بلغت المساعدات الأميركية هذه السنة بين عسكرية واقتصادية ٣,٥ مليار دولار.

إنما الذي كان يشغل بال ضياء الحق وعسكره في المفاوضات مع وزير الدفـاع الأميركي، ليس زيادة حجم المساعدات الأميركية لبلاده، إنما مدى استعداد الولايات المتحدة للوفاء بالتزاماتها للحفاظ على نظامه في وجه التصعيد المتوقع للاضطرابات التي كانت تعدها له المعارضة. لكن أهم من ذلك كله ـ وهـو الهاجس الحقيقي للنظام الباكستاني وقتئذ ـ مدى رغبة اميركا واستعدادها للوقوف في وجه أو منع أي تدخل هندي محتمـل ضد ضياء الحق في حال تردّي الأوضاع في باكستان الى حد المواجهة العسكرية بينه وبين المعارضة من جهة، وبينه وبين الهند من جهـة ثانيـة. ولم تمنع هواجس ضياء الحق جريدة النظام «باكستان تايمز» من اتهام اميركا بأنها «حليف لا يوثق به».

كل العوارض الباكستانية هذه تذكر بالأمراض الايرانية التي عصفت بالشاه وقضت على نظامه، مع فارق بسيط: أن ضياء الحق على لسان وزيـر اعـلامـه رجا ظفر الله حق (ليس قريباً لضياء) اتهم الصحافة والاعـلام في العـالم لاهتمـامهمـا باضطرابات بلاده، بأنهما في قبضة اليهـود. لكن سرعان ما صرّح الوزير نفسه في اليوم التالي معتذراً بأن باكستان كدولة اسلامية تكن كل الاحترام لليهود وانبيائهم. لكن أعداء باكستان يسيطرون على الاعلام الدولي الذي يملكه الصهاينة من أنصار

اسرائيـل. ولم يمنع ذلك وزير الاعلام الباكستاني من أن يدخل وزير خارجية الهند في عداد أعداء باكستان لمجرد ان الوزير الهندي قد أدلى بتصريح أبدى فيه «قلقه» من أحداث باكستان، معتبراً أن ذلك التصريح يشكل تدخلاً في شؤون بلاده الداخلية، مع العلم بأن وزير خارجية الهند ليس يهودياً وليس صهيونياً.

ولم يفت المراقبون السياسيون في باكستان، حتى من بين المتعاطفين مع ضيـاء الحق، اعتبـار ان نظامه لم يحقق شيئاً بعد أكثر من عشر سنوات من قيامه. فحالة الأمن الداخلي اكثر تردياً مما كانت عليه في أي وقت مضى. وانهيـار الوحـدة الوطنية الداخلية التي قامت بعد ضياع باكستان الشرقية (بنغلادش) وتعميق الهوة بين السُّنة والشيعة في ظل دولة اسلامية واحدة، قد قوض أسس قيام باكستان نفسـها. وأن قرار دعـوة الأفغانيين للجوء الى باكستان وتزويدهم بالمال والسلاح ورعاية مخيمـاتهم كان كارثة اقتصادية وسياسية. والاقتصاد الباكستاني لم ينمو، والمال الآتي من الخارج على شكل مساعدات أو تحويلات من المهاجرين الباكستانيين قد ضاع في الفوضى والرشوة وسوء الاستعمال بدل استثمـاره، لدرجـة أن النـظام «بات عاجزاً عن إبعاد الذباب عن الحلوى في الأسواق».

■ ■ ■

تعرف دول الخليج عبر تعاملها الطويل مع باكستان كم عريقة هي العسكرية الباكستانية. فأقدم أكاديمية عسكرية في المنطقة، كانت وما زالت في باكستان. ويعرف الخليجيون أيضاً أن العسكري الباكستاني الذي يعمل عندهم يحمل كفاءة معينة. لكنه يحمل الى جانب هذه الكفاءة هويته الاسلامية التي ترشحه للقيام بالدور الذي أفسحه الخليجيون له في بلادهم. فكفـاءة العسكري الباكستاني وحدها لم تكن جواز مروره الوحيـد. بل كانت اسـلاميتـه الى جانب خبـرتـه الطويلة في العمـل «الانكشـاري»، سببـاً في الاقبال على استخدامه. يضاف الى ذلك أن

باكستان منذ قيامها كدولة مستقلة، كانت على ارتباط وثيق بالولايات المتحدة ودول الغرب، تحمل علم مناهضة الشيوعية والنفوذ السوفياتي. مما أفسح في المجال لها لأن تكون مقبولة لدى دول الجزيرة العربية كلها. فباكستان منذ قيامها كانت عضواً في الأحلاف الغربية مع جارتيها ايران وتركيا الموازيتين في حدودهما للاتحاد السوفياتي، بدءاً بحلف بغداد ومروراً بحلف المعاهدة المركزية «السانتو»، ونهاية بالتنسيق المشترك مع نظام الشاه في ايران بالأمس والنظام التركي المدني بالأمس والعسكري اليوم.

وزاد الوجود السوفياتي في أفغانستان من العبء الغربي على باكستان، بتحويلها الى خط تموين أساسي للمجاهدين الأفغانيين وعملياتهم العسكرية ضد الجيش السوفياتي داخل أفغانستان، وإلى مركز لإيواء حوالي مليوني لاجىء أفغاني. ولم تستطع لا زيارة زبغنيو بريجنسكي مستشار الأمن القومي للرئيس الأميركي السابق كارتر، الى خطوط التماس الباكستانية مع أفغانستان، ولا زيارة مارغريت ثاتشر رئيسة وزراء بريطانيا للحدود الباكستانية ـ الأفغانية، ولا زيارة كاسبار واينبرغر وزير الدفاع الأميركي لمواقع الأفغانيين على الجبهة الباكستانية الأمامية، من أن تقنع أحداً بأن الغرب جاد في مواجهته للاتحاد السوفياتي في أفغانستان. ولم تستطع الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون من أن يقدموا شيئاً لباكستان مقابل الوجود السوفياتي العسكري في أفغانستان إلا مزيداً من المساعدات التي صرفها نظام ضياء الحق على القمع الداخلي وعلى استعداداته العسكرية ضد الهند، التي يخاف منها أكثر مما يخاف الاتحاد السوفياتي.

وإذا بالتواجد الأفغاني الكثيف في باكستان يخلق حالة من اللاتوازن في البلاد، ويشكل عبئاً على الحكومة الباكستانية، بحيث أخذت في الأشهر الأخيرة تتوقف عن تلبية طلبات المجاهدين الأفغانيين وتعرقل من وجودهم، بعد أن توصلت الى قناعة تقول أن القضية الأفغانية قد انتهت وإنها دخلت ضمن صفقة تسوية اميركية ـ سوفياتية.

لكن إذا كانت القضية الأفغانية قد «انتهت»، إما بحكم الأمر الواقع

للوجـود السـوفيـاتي في أفغـانستـان أو بحكم الصفقـة الأمـيركية ـ السـوفيـاتيـة، فهل يعني ذلك إن قضية وجود باكستان كدولة ما زال مطروحاً للبحث؟

الجواب على الأغلب نعم. فكلما مر زمن على تأسيس باكستان وفتحت ملفات وكشفت أوراق، اتضح أن قيام دولة باكستان كان خطأ فادحاً، وأن محمد علي جناح قد أمعن في الاصرار على هذا الخطأ عندما دفع الى تقسيم الهند الى دولتين. وبعد مرور قرابة نصف قرن على انشاء الكيان الباكستاني ليكون دولة المسلمين في الهند، لم تستطع باكستان أن تحل مشكلة المسلمين في الهند، بل أصبحت مشاكل المسلمين داخل باكستان أكثر منها في أية دولة في العالم. وإذا بالمسلمين في الهند الذين هم أقلية يبلغ تعدادها حوالى أربعين مليون نسمة، لا يعاملون أسوأ مما تعامل به باكستـان مواطنيهـا المسلمين، وهي الدولة التي قامت أساساً لحماية المسلمين، بل على العكس. وإذا بدماء المسلمين التي هدرت في باكستان بين جناحها الغربي الذي هو باكستان اليوم وجناحها الشرقي الذي هو بنغلادش اليوم، أكثر مما هدر من دماء المسلمين في الهند عند تقسيم شبه القارة الهندية عند الاستقلال. فتبريرات محمد علي جناح «القائد الأعظم» باختراع هذا الكيان السياسي وانتزاعه من الجسم الهندي لم تعد مبررة اليوم على ضوء حصيلة تجربة ٤٠ سنة من الأخطاء المتراكمة والفشل المتفاقم.

أن خطر تقسيم باكستان أمر حقيقي وإمكانية واقعية. ونظام ضياء الحق قد جعل التعايش بين شعوب أقاليم باكستان الأربعة، البنجابيين والسنـديـين والبـاتان (سكان الشمال الغربي) والبلوش، أمر في غاية الصعوبة. وجعل من خطر انفصال بلوشستان موضوعاً جدياً. وكما يمكن أن تنفصل بلوشستان يمكن أن تنفصل البنجاب والسند.

■ ■ ■

لكن احتمال «بلقنة» باكستان لا بد ان تقلق دول الخليج، لما تسببه

من انعكاسات على المنطقة ككل، وعلى الأيدي العاملة الباكستانية فيها المتعددة الولاء القبلي والإقليمي. حتى من قبل أن يتم طرح احتمالات تقسيم باكستان من جديد، فإن الباكستانيين العاملين في الخليج هم اليوم منقسمون في ما بينهم مع من هو مع نظام ضياء الحق ومن هو ضده ـ الى جانب تنوعهم القبلي بين الباتان والبنجاب والبلوش، إذ لا بد من أن يرسو ولاؤهم على الاختيار القبلي الإقليمي عند نهاية المطاف.

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار ان خلاصة موضوع الخلاف الباكستاني المتشعب أمران بسيطان: الأول، الديمقراطية والمطالبة بعودة مؤسساتها وضماناتها لوقف حكم العسكر التعسفي. والثاني وقف تسلط فئة إقليمية قبلية (كالبنجابيين اليوم) على فئة اقليمية اخرى تعتبر نفسها مغبونة الحقوق كالسنديين والبلوش. وهذا ما حصل بالضبط وأدى الى انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية وقيام دولة بنغلادش، عندما ثار البنغاليون ضد حكم العسكر البنجابيين في باكستان الغربية وتسلطهم على مقدرات البنغال بقيادة الشيخ مجيب الرحمن، الذي بدأ بالمطالبة بعودة الأحزاب والديمقراطية، وانتهى لما واجه قمع عسكر أيوب خان بالانفصال التام ودعا الهند للتدخل العسكري الى جانبه.

ان هناك احتمالاً بأن تتكرر التجربة الانفصالية الباكستانية السابقة، مع الإدراك أنها اليوم أكثر خطورة في مضاعفاتها الخليجية. والشعار المطروح بين الباكستانيين في الخليج هو الديمقراطية وليس «البلقنة». الديمقراطية بمعناها الحزبي التعددي البرلماني. وهذه مؤسسات لا تملك دول الخليج منها شيئاً. وبالتالي قد تؤدي في حال تصعيدها الى طرح شعارات ومواضيع، أنظمة الخليج في غنى عنها اليوم. وهذا ما سيجعل تواجد العمالة الباكستانية على الأرض الخليجية محرجاً، وخاصة أن ضياء الحق قد أفلح في إقناع دول الخليج أن الباكستانيين، وعلى الأخص العسكريين منهم، هم إحدى ضمانات استقرار الأنظمة ووسيلة أساسية في حمايتها.

لذلك لا بد لمجلس التعاون الخليجي من أن يواجه عدداً من الأسئلة

المتداولة الآن، بداية بطرح شعار الديمقراطية ونهاية بالتساؤل عما إذا كان الباكستانيون نواطيرُ أمن الخليج هم بالفعل أداة استقرار وحماية لصد احتمالات أي غزو مسلح، وحراس يعتمد عليهم، أم هم طابور خامس داخلي بالفعل؟ والباكستانيون الذين اعتادوا الخدمة في جيوش الآخرين وأصبح احد تقاليدهم تجارة تصدير الخبرات العسكرية الى الخارج، لا بد من ان يواجهوا في الأيام القادمة خيار ان تكون قلوبهم مع الدول التي يخدمون ويعملون فيها، لكن سيوفهم ضد ضياء الحق الذي تدعمه وتؤيده كل دول الخليج، وهذا مما سيخلق حالة .تناقض بين مصالح هذه الدول وبين المواطنين الباكستانيين المقيمين فيها. والباكستانيون المقيمون والعاملون في دول الخليج، لا يعنيهم نظام تلك الدول الا بقدر ما توفر لهم سبل الارتزاق. لكن، قطعاً، يعنيهم نظام بلادهم وحقهم في أن يكون لهم رأي وموقف من الأحداث. وقد يصطدم الموقفان خاصة إذا حَدثت المواجهة على الأرض الخليجية.

إن احتمالات «بلقنة» باكستان، عن طريق الطرح الديمقراطي للنظام الحاكم فيها الآن، لن يبقى محصوراً في نطاق الدولة. فنحن كعرب نعرف معنى هذا الطرح، في ضوء تجاربنا من تردّي الأوضاع العربية نتيجة لحرب لبنان. لذلك نعرف أن مشاريع «البلقنة» الباكستانية قد تصل الى شواطئنا ولن تبقى محصورة داخل باكستان المتعارف عليها الآن. إن رسامي الخرائط الجدد، لن يكتفوا برسم خريطة واحدة لبلد واحد. إنما هناك خرائط حديثة وجديدة لحدود لا نعرفها تشمل بلادنا.

إذن، بدأ غناء موال أمن الخليج من جديد، فلا بد من محاولة إبعاد الموسى الباكستاني عن الذقن الخليجي. وتلك المحاولة تحتاج الى وقفة جدية لمجلس التعاون الخليجي فيها من الحقائق المرة ما قد يجعل تجربة الحرب اللبنانية وتجربة الحرب العراقية ـ الايرانية بالمقابل مجرد نزهة.

■ ■ ■

لا بد أمام هذا التصعيد الكبير المرتقب في المواجهة الخليجية

المحتملة، مجدداً من طرح موضوع وجود «الخبراء» العسكريين الباكستانيين في دول الخليج، ومجموعة الباكستانيين من عمال ومرتزقة وانكشارية، ودورهم في الدفاع عن سلامة الخليج وحماية أمنه، ضد ايران بالذات، الدولة الثورية المسلمة حاملة راية العصيان والتغيير في المنطقة بأسرها.

والعمالة الباكستانية بمجموعها في الخليج اليوم موزعة الولاء بين:

ان تكون مع نظام ضياء الحق العسكري.

أو ضده.

فلا ولاء لها للأنظمة الخليجية التي هي موجودة نظرياً لخدمتها. ومن المحتمل أن يجد الباكستانيون العاملون في الخليج أنفسهم أمام خيارين: إما أن يمتثلوا لأوامر ضياء الحق الملتزم مع حكومات الخليج في تنفيذ تعاقده بحمل عسكره على الدفاع عن هذه الأنظمة إذا دعت الحاجة الى ذلك، أو أن يعصى هؤلاء الباكستانيون (أو بعضهم على الأقل) أوامر رئيسهم معتبرين أن التدخل الايراني فرصة سانحة لهم لإسقاط ضياء الحق ونظامه العسكري وإحداث التغييرات التي يريدونها في باكستان ولو على حساب سلامة الأنظمة الخليجية، بالانضمام الى الجانب الايراني وتسهيل مهمته في تقويض أمن الخليج سعياً للوصول الى تقويض نظام ضياء الحق نفسه في باكستان.

فالربط بين الموقفين أساسي على ضوء التهديدات الإيرانية لدول الخليج، وخاصة عندما يكون متوسط نسبة الوافدين من غير أهل البلاد الأصليين في مجموع دول مجلس التعاون الخليجي الخمس حوالى ٤٠ بالمئة من أصل السكان. لذلك فإن اسطوانة «أمن الخليج» ـ وهذه مسؤولية دوله حسب ما تؤكد كل بيانات مجلس التعاون منذ انشائه الى اليوم ـ لا بد أن تسقط على آذان صماء لأن المواطن الخليجي ما زال بعيداً عن فض التشابك الحقيقي بين ما هو مصلحة الوطن وما هو مصلحته الشخصية. فالمال الخليجي لا يحمي الخليج، والبورصة الخليجية لن توفر الحماية والاستقرار له، ما دام الإنسان الخليجي غير قادر على تطويع المال لحماية الوطن وبالتالي حماية نفسه ومصالحه.

حتى الآن وبعد مرور سنوات عديدة على قيام مجلس التعاون الخليجي، لم تتوصل دوله الى تحديد حقيقي وعملي لمفهوم «أمن الخليج» لكي تستطيع أن تواجه به مصالح القوى المحيطة بالخليج واستراتيجيتها في المدى القصير والبعيد معاً. فما زال التساؤل مطروحاً ـ في غياب التحديد الواقعي لأمن الخليج ـ عما إذا كان مفهوم الأمن المتداول هو أمن الأنظمة أم أمن المواطن أم أمن المصالح الاقتصادية، بغض النظر عمن هو قيّم على هذه المصالح ومن هو المستفيد منها. ولا بد من أن تفرز المواجهة المرتقبة مع ايران إعادة تقييم لمجموعة المفاهيم الأمنية المطروحة على الساحة الخليجية الآن، ومنها الانطلاق ربما الى الدعوة لتفكير قومي عربي جديد.

وذلك لم يكن بالاعتماد على ضياء «الحق» الباكستاني في مواجهة ايران ولا بالاختيار بين «خبراء» أعرق بالارتزاق العسكري والخدمة الانكشارية ولا من مرتزقة أكثر خبرة بالخدمة العسكرية والعمل الانكشاري.

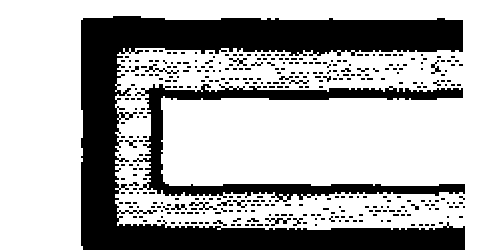
فالباطل الحقيقي لا يهزم بالحق المستأجر حتى ولو كان هذا «الباطل» ايرانياً وذلك «الحق» باكستانياً.

الانتصار يكون فقط عندما يصبح ذلك الحق عربياً أمام أي باطل كان. وعندما يصبح لدى الدول الخليجية ـ أنظمة ومواطنين ـ الجرأة في ان تقرّ أن السلاح الأجنبي والأيدي الأجنبية لن تكون وحدها قادرة على حمايتها من دون سواعد أبنائها ومالهم وانتماءاتهم وتضحياتهم. ولا يمكن حسم الصراع الدائر في الخليج اليوم باستئجار من هو مشكوك في ولائه ومشكوك في هويته ومشكوك على الأقل في حماسه. والأخطر من ذلك أن ينتظر العرب من نواطير الخليج أن يحاربوا في معركة ليست معركتهم، فيبذروا بذور «البلقنة» على امتداد تلك الأرض الخصبة بالخصومات القومية والطائفية والعشائرية والعرقية، ناهيك بخصومات الحدود وخلافات الجدود.

يبقى التساؤل: متى وأين يبدأ الانهيار؟

مــراجع

- «**تاريخ الشعوب الاسلامية**» - كارل بروكلمان (ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي) - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٥٥/ ١٩٥٦.
- «**التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية**» - مصطفى عبد القادر النجار - دار المعارف بمصر ١٩٧١
- «**ملوك العرب**» - أمين الريحاني - دار ريحاني - بيروت. ١٩٥٢
- «**تاريخ الكويت السياسي**» - حسين خلف الشيخ خزعل - أربعة أجزاء - بيروت. ١٩٦٢ - ١٩٦٥
- «**محـاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية**» - أحمد مصطفى أبو حاكمة - القاهرة - ١٩٦٧/ ١٩٦٨
- «**تاريخ العراق السياسي الحديث**» - عبد الرزاق الحسني - صيدا. ١٩٥٧
- «**الجذور التاريخية للقومية العربية**» - عبد العزيز الدوري - بيروت - ١٩٦٠
- منشـورات «**جبهـة تحرير عربستان**»، و «**الجبهة العربية القومية لتحرير عربستان**»، و «**جبهة الشعب العربي الايراني المسلم**».



فهرس الأماكن



فهرس الأعلام

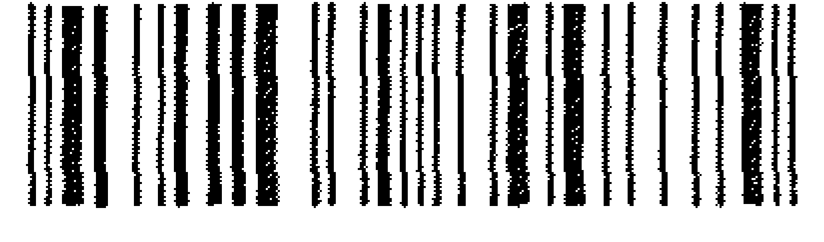
العرب وجيرانهم

الأقليات القومية في الوطن العربي

القضايا المحيطة بالعرب وجيرانهم كثيرة. وهذا الكتاب يعالج مجموعة من القضايا «الخاسرة» المحيطة بحزام القضية العربية الأساسية والتي تشكل انعكاساً مباشراً لها وعليها، وهي قضايا الأقليات القومية في الوطن العربي.

ويتناول الكتاب قضايا: بلوشستان، عربستان، الأقليات في ايران، ناهيك بمجموعة من القضايا الأخرى الهامة والمتعلقة بهذا الموضوع الخطير الذي يطرح للمرة الأولى من قبل كاتب عربي بهذا الوضوح وبهذه الصراحة.

ويطالب المؤلف في هذا الكتاب بضرورة الخوض في هذه القضايا والتحدث عنها والتصدي لها وشرحها. ولا يعني المؤلف في عرضه لها ـ وكلها قضايا مثيرة للجدل ـ من أن يكون منحازاً لها أو ضدها، بقدر ما يعنيه أن يكون منصفاً لها، وأن يلفت النظر إليها على ضوء ما يجري اليوم في المنطقة. وبالتالي تجيير هذا الفهم للمصلحة العربية الحالية والمستقبلية.


1869844874